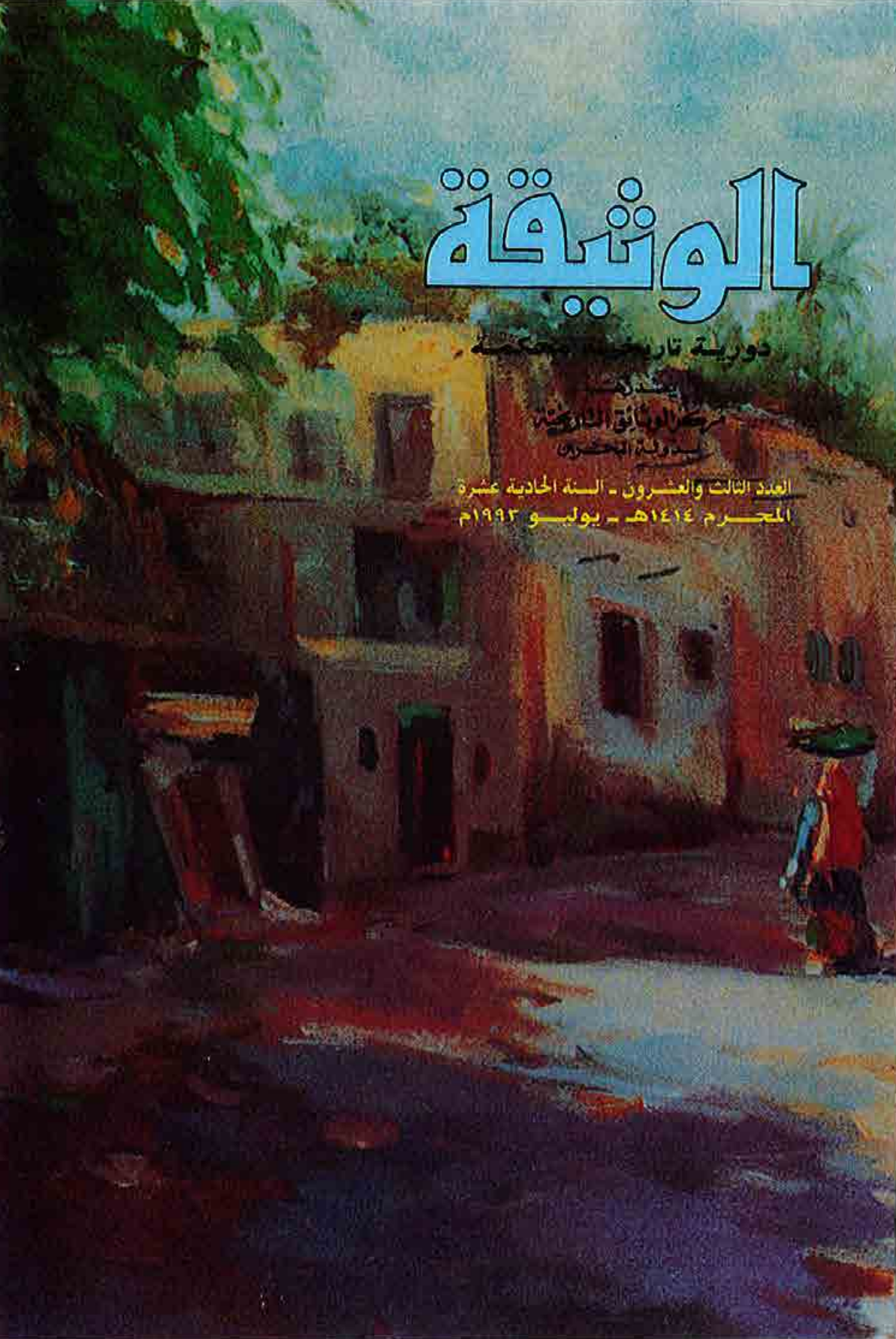
الوثيقة
دورية تاريخية محكمة
يصدرها
مركز الوثائق التاريخية
بدولة البحرين
العدد الثالث والعشرون - السنة الحادية عشرة
المحرم ١٤١٤هـ - يوليو ١٩٩٣م

دراسة موضوعيّة وفنية ١

الشاعر علي بن المقرّب العُيُّوني

بقلم : الدكتور / أحمد موسى الخطيب

بالشعرِ.. أرّخ ابن المقرب

دَولةِ العَيونيين

هـــذا البحـــث

الشاعر البحريني القديم والشهير علي بن المقرب العيوني لا تكمن أهميته فقط في أنه أحد الشعراء المجيدين الذين عرفهم تاريخ الأدب العربي وإنما ترجع أهميته في أنه يعتبر المرجع الأهم بل يكاد يكون المصدر الوحيد . لتاريخ دولة كاملة هي دولة العيونيين التى حكمت البحرين لأكثر من ١٥٠ عاما بدأت مع أوائل القرن الثالث عشر الميلادي وشغلت مساحة ليست بسيطة في تاريخ هذه الجزر العريق .. وكأنما كان الشاعر علي بن المقرب يعرف أن مصادر تاريخ هذه الدولة سوف تضيع فأرخ بشعره لها ولحكامها ورسم بقلمه صورا دقيقة لواقع الحياة خلال الفترة التى عاشها وعايش فيها دولة العيونيين . وإذا كان البحث في تاريخ علي بن المقرب وشعره أمرا اكثر أهمية بالنسبة للباحث في الأدب واللغة الا أنه سيظل دائماً أمراً هاماً بالنسبة للباحث في تاريخ دولة البحرين بصفة عامة وعصر العيونيين بصفة خاصة وذلك ما دفعنا إلى أن نعرض على صفحات الوثيقة هذا البحث القيم للباحث الدكتور / أحمد موسى الخطيب راجين أن يحقق الهدف منه وهو توفير بعض المادة التاريخية عن تاريخ هذه الدولة للباحثين في تاريخ البحرين .

(الوثيقـــة)

الرجل .. عصره .. وحياته

(عصره : الزمان)

حرى بنا قبل الوقوف على البيئة الخاصة للشاعر ، أن نلقي نظرة على البيئة العامة له ، ونقصد بذلك عصره ، وأحوال سائر الأمصار العربية الأخرى ، وذلك لأن الحياة السياسية ، والاجتماعية ، والاقتصادية ، والثقافية للأمة العربية كل لا يتجزأ ، مهما تباعدت أقطارها ، فهى مشدودة - دائما - بأواصر متينة اذا فدراسة أى قطر عربي بمعزل عن الاطار القومي العام ، تعد دراسة ينقصها الكثير من الكمال .

لقد ظلت الشعوب الاسلامية مجموعة الى لواء الخلافة زهاء قرنين من الزمان ، ثم بدأت الخلافة المركزية في الضعف ، وأخذت أجزاؤها تتفرق واحدة بعد

واحدة ، ولم يكن هذا التفرق نتيجة لضعف الخلافة العباسية وحده ، وإنما يرجع في بعض اسبابه الى تطور الوحدات والشعوب الاسلامية تطورا ، جعل بقاء الوحدة الشاملة أمرا غير ميسور ، ونعنى بهذا التطور نهوض بعض الأجناس الاسلامية ، واتجاهها نحو القوة ، وميلها الى بدء حياة قومية جديدة . فلما كان النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، والسنوات الأولى من القرن الرابع . كانت الدولة العباسية الكبرى قد بدأت أركانها تتصدع ، وأمصارها تستقل ، وولاياتها تنفصل عنها ، وأصبحت العاصمة «بغداد» مركزا للدسائس والمؤامرات ، فتقلص ظل الخلافة ، وذابت سطوتها ، وأصبح الخليفة أسير قصوره وقواده ، لايكاد يملك من أمر نفسه شيئا .[١]

ولم يلبث الفرس أن طردوا ، حين اظهروا عجزهم عن قمع الفوضى المنتشرة في قلب الامبراطورية الاسلامية ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فقد أحس العباسيون بالخطر الذي سيجلبه عليهم تسلط الفرس على أمور الدولة ، ولذلك حاولوا التخلص منهم ، فجاءوا بالترك ، وسلطوهم عليهم ، وكان هذا بلاء جديدا ، ومرضا أفتك من المرض الأول ، دخل جسم الأمة العربية ، لأن الفرس كانوا قوما ذوى حضارة قديمة ، وعلم موروث ، فلما توطدت أركانهم في الدولة العربية نشروا علمهم ، وبعثوا حضارتهم ، أما الترك فقوم لم يعرفوا بحضارة ، ولا روى عنهم علم موروث ، فلما استولوا على زمام أمر الدولة العربية ، سيطر عليها الجهل وعمت الفوضى ، وفشا الفساد ، وأصبح من الطبيعى أن تصل الدولة العربية الى حالة مزعجة من الفساد»[٢] حتى في عهد أقوى شخصياتها الوزير نظام الملك[٣]«الذى ترك رسالة رائعة ، كشف فيها النقاب عن مساوىء الادارة في الامبراطورية السلجوقية» .[٤]

وسرعان ما تجزأت الامبراطورية السلجوقية ، وفقد الأمراء من هذا البيت سلطانهم بالكلية ، بعد أن استبد بها من دونهم من الأتابك ، الأوصياء عليهم .[٥]

وهكذا كان العالم العربي عامة ، والعراق خاصة في فجر القرن السابع ، على حالة مزعجة من الاضطراب والفوضى ، والسر في ذلك يرجع الى الخلفاء الذين أصبحوا العوبة في يد الأعاجم من الأتراك والسلاجقة ، يتصرفون بالبلاد كما يشاءون ، ويقضون على القومية العربية بما يريدون .[٦]«وقد كان خلفاء بنى العباس المتأخرين ، وهم قادة المسلمين اسميا ، لا يتمتعون الا باحترام معنوى خارج مملكتهم الصغيرة ، التى لم تكن تقدم لهم من الامكانات ، ما يساعدهم على النهوض بواجب سياسي خطير .[٧]«وكان الناصر لدين الله (٥٧٥ ـ ٦٢٢هـ)[٨] هو أول هؤلاء الخلفاء الذين بدأ الغزو المغولي في عهدهم ، وقد اشتد في أيامه انحلال الامبراطورية السلجوقية .[٩]«وكان الناصر قبيح السيرة في رعيته ظالما متعسفا ، أكثر عليهم الجواسيس ، واشتط في فرض الضرائب ، وأخذ أموال الناس حتى خرب العراق في عهده ، وتفرق أهله في البلاد ، وكان يفعل الشيء " وضده ، فكان يتشيع ويميل الى مذهب الامامية بخلاف آبائه »[١٠] والواقع أن هذا الخليفة الذى يعد آخر الدهاة من بنى

العراق كالحميات والطواعين .[٢٧]

واذا كانت هذه حال العراق - وهو مهد الخلافة العباسية ، وميزان الامبراطورية الاسلامية - فكيف تكون حال سائر ممالك الخلافة التابعة لها ؟ والحق أنها كانت في حالة مزعجة ، سواء من حيث التفكك أو الجهل أو الفساد أو الاضطراب ..

تميز القرنان السادس والسابع بعد الهجرة ، بتقدم زراعي ، وتنوع في الثورة الزراعية ، وقد أدى هذا بدوره الى قيام صناعات عديدة ، ترتكز على الحاصلات الزراعية ، والثروة المعدنية . وكذلك تجلى في هذا العصر انتعاش التجارة الداخلية ، كما نشطت حركة التبادل التجاري بين مدن العراق ، وبلاد المشرق الاسلامي ، بفضل انشاء الطرق وتأمينها . وكان من أثر وفرة المحاصيل الزراعية وتنوعها ، وتقدم الصناعات وازدهارها ، ونشاط حركة التجارة أن رخصت الأسعار ، وتحسنت أوضاع الناس المعيشية .[٢٨]

ويمكن القول أن النشاط الزراعي في العراق خلال القرن السادس والنصف الأول من القرن السابع كان جيداً ، وأن القرى والمدن كانت عامرة .[٢٩]

وكانت التجارة مهنة نشيطة خلال العصر العباسي الأول ، وقد استمرت كذلك حتى هذه الفترة .[٣٠] وقد كانت مصنوعات الحديد العراقية تستهوي التجار فيستوردونها الى أوطانهم[٣١] ، كما فعل شاعرنا علي بن المقرب العيوني ، اذ اشترى حديداً من بغداد ، وانحدر به الى البصرة ، مارا بواسط ، وقد استوقفه بواسط ضامن المكوس ، وأخذ منه مكسا بقدر نصف الثمن ، حيث كان ثمن المنّ الواحد ببغداد دينارين ، بينما كانت الضريبة دينارا واحدا على كل منّ حديد ، لذا هجا ابن المقرب ضامن المكوس بواسط بقوله :

بع واسطا بالناى والهجر
ودع المرور بها الى الحشر
أرض يدبرها ابن صابئة
شابت مفارقها من الكفر[٣٢]

ثم يشير الى اجحافهم في الضريبة ، الى حد وصفه لهم بقطاع طرق ، لاضامنى مكوس :

أسرفت في ظلم العباد أما
للبعث في ناديك من ذكر
واعنت قطاع الطريق على
فقر التجار وخيبة السفر
نصف البضاعة حين تظفرها
مكس لقد بالغت في النكر
خنت الخليفة في رعيته
وعصيته في السر والجهر
وكلت عثمانا فوافقنى
فيها وتابعه أبو بكر
حتى خرجت على حسابهما
مما جلبت براحة صفر[٣٣]

ولكن مهزلة «قطاع الطرق» من رجال المكوس لم تنته عند هذا الحد ، فلما وصل ابن المقرب البصره ، أخذ منه ضامن مكسها ضريبة يسيره ، ثم عاوده ليأخذ منه مرة أخرى[٣٤] ، فكتب ابن المقرب قصيدته التى تقع في ثمانية أبيات ، وبعث بها الى أمير البصرة شمس الدين باتكين[٣٥] ، يشكوه ذلك ، ويطلب منه دفع قيمة المكس :

يا شمس دين الله كم لك من يد
يثنى بها باد ويشهد حاضر
ولدي أعمدة قليل قدرها
جدا وللديوان وال قادر
لا شيء عندي : مكسها لكنني
أخشى يقول الناس جاهك قاصر
ولقد جرى فيها بواسط وقعة
ما كان لى فيها هنالك ناصر (٣٦)

ثم يختتم هذه الابيات بقوله :

فادفع بجاهك أو بمالك منعما
عني فما لك للعفاة ذخائر

ويتضح جليا من هاتين القصيدتين أن الزيادة في المكس واقعة من قبل الضامن ، وليس للحكومة ممثلة بخليفتها أو ولاتها علم بذلك ، ولذلك طلب الشاعر مساعدة والى البصرة .

لقد أثبتت كتب التاريخ والأدب أن الحركة العلمية والأدبية ، كانت مزدهرة في هذا العصر في بلاد العراق ، والمشرق الاسلامى ، فاهتم كثير من العلماء والفقهاء بالاشتغال بالعلوم الدينية واللسانية ، من قراءات وتفسير وحديث . وظهرت عدة مراكز للثقافة العلمية ، ولكن بغداد احتفظت بمركزها الخاص .

وكان لاستقلال بعض الدول عن الخلافة أثره في نشاط الحركة الفكرية ، ورواج الثقافة ، فزخر بلاط هذه الدول بالعلماء والشعراء والأدباء وغيرهم ، ومن ثم نرى صدى هذه النهضة في بلاط كل من الغزنويين في الشرق والفاطميين والأيوبيين في مصر والشام ، والامويين في الأندلس ، والمرابطين والموحدين في المغرب .(٣٧)

«وهكذا كانت الثقافة العربية الاسلامية تمتد - في القرنين السادس والسابع الهجريين - من الهند الى الاندلس ، وتبادل العلم والعلماء قائم بين هذه الدول جميعا ، وان تباعدت أصقاعها ، واختلفت الوانها السياسية ، أو تعادى ملوكها وحكامها ، فان الثقافة العربية حينئذ لم تعترف بالحدود الاقليمية ولا السلطان والفوارق السياسية أو العنصرية ، فيخرج العلماء من شتى بلاد المشرق ، أو يجوبون هذا العالم العربي الاسلامي ، من حدود الهند وأذربيجان الى أقصى حدود المغرب والاندلس» .(٣٨)

ويجب أن لا نغفل في هذا المقام دور كثير من الفرق ، التي اتخذت الثقافة والعلم وسيلة لتحقيق أغراضها السياسية ، وما كان لها من أثر في النهضة العلمية ، وخير مثل لذلك الآثار التي خلفها العلماء من السنيين والشيعيين .(٣٩)

وقد تميزت الحركة العلمية والأدبية ، في العراق والمشرق على عهد الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) بميزتين أساسيتين ، تندرج تحت كل منهما خصائص فرعية متنوعة ، أولاهما : صفة الشمول التي اتسمت بها آفاق النشاط الذهني ، فاتسع نطاق البحث حتى شمل مختلف العلوم والآداب والفنون . وثانية الخصائص تتعلق بالأسلوب ، فقد تجلت الصناعة اللفظية في كتب العلوم والآداب والفنون .(٤٠)

أما حال الشعر في هذا العصر فقد تغيرت عما كانت عليه قبله ، بعد ذهاب سيف الدولة ، والصاحب بن عباد وغيرهما من الآخذين بناصر الآدباء والشعراء . وصارت أكثر أمور الدولة الى

الأعاجم، وانصرفت القرائح الى الفقة والتصوف وغيرهما من العلوم الدينية ، وظهر الأدب الشعبي نتيجة لفقدان الرعاية ، فأصبح الشاعر لا ينظم رغبة في الجائزة ، أو تنافسا في التقدم لدى ولاة الأمر ، وانما ينظم في الأكثر ارضاء لقريحته ، فتغيرت أغراض الشعراء من النظم ، وقل النابغون منهم ، ومع اتساع الدولة الاسلامية ، وطول هذا العصر ، لم ينبغ فيه من الشعراء البلغاء نصف ما نبغ في العصور السابقة . ونظرا لما توالى على الدولة الاسلامية من الإحن والفتن ، كسدت سوق الشعر ، وأصبح المنتجع من الشعراء لا يستنكف من شكوى الفقر وطلب الرفد بصراحة . ويمتاز هذا العصر باتقان الصناعة اللفظية على الاجمال ، ولحق الشعر منها حظ كبير ... فأصبح الشاعر يصرف همه الى اللفظ ولو سخر له المعنى أحيانا .[٤١]

هكذا فقد شهد هذا العصر قدرا كبيرا من الفوضى والاضطراب ، وضعف السلطة المركزية ، وتفكك أطراف الدولة الكبرى ، وصراع هذه الدويلات وتنافسها ، وترتب على هذا سوء الأحوال الاجتماعية ، وانتشار الأوبئة الاجتماعية والمادية . وعلى الرغم من هذا وذاك ، فقد شهد هذا العصر تقدما زراعيا وصناعيا ، وشيئا من الرخاء الاقتصادي ، حال رجال المكوس دون تمتع الرعية بهذا الرخاء ، وذلك التقدم . وكانت الحياة العلمية والأدبية أحسن حظا من سائر حيوات هذا العصر ، ولكن الشيء المتفق عليه ، أن هذه الفترة قد تميزت بالمحاكاة ، وخلت - أو كادت تخلو - من الابداع والابتكار ، وحال الشعر خير دليل على هذا .

(٢)

مع مطلع القرن الرابع الميلادي استولى سابور (ملك الفرس) على البحرين ، ونكل بأهلها ، وعندها أصبحت تابعة لملكة الفرس ،[٤٢] «وعاملها من قبلهم المنذر بن ساوى التميمي» .[٤٣] وكان بها خلق كثير من عبدالقيس ، وبكر بن وائل ، وتغلب ، وتميم ،[٤٤] وكانت «عبدالقيس» قد جاءت من تهامة الى البحرين ، يقودها عمرو بن الجعيد بن الدؤل بن شن بن أفص بن عبدالقيس ، فزاحمت قضاعة واياد ، وغلبتهما ، واستوطنت فيها .[٤٥] وحين خرجت رسل الخير من «يثرب» تحمل بشرى الدين الجديد الى أطراف شبه الجزيرة ، أنفذ الرسول ﷺ العلاء بن عبدالله الحضرمي ليدعو أهلها الى الاسلام أو الجزية ، فأسلم أهلها العرب وبعض المجوس .[٤٦] وكانت رياستها في صدر الاسلام لبني الجارودي .[٤٧] وبقيت البحرين تحت سلطة الدولة العباسية حتى عام ٢٤٩ هـ ، الى أن هاجمها الزنج بثورتهم المشهورة ، وأصبحت تحت سلطانهم مدة احدى وعشرين سنة ، وعندما هلك صاحب الزنج عام ٢٧٠ هـ رجعت البحرين الى تبعية الدولة العباسية حتى زمن المستكفي[٤٨] بالله (٣٣٣ - ٣٣٨ هـ) .[٤٩] وفي عام ٢٨٦ هـ ظهرت بالبحرين جماعة القرامطة[٥٠] بزعامة أبي سعيد الجنابي ، والتفت حوله جماعة من الاعراب ، فقوى أمره ، واستولى على القطيف ، ثم عبر الى أوال ،[٥١] وفي السنة التالية أغار على نواحي هجر ، وبعد ذلك توالت غاراتهم

داخل الجزيرة وخارجها ، وأخذهم الحاج غيرة مرة .[٥٢]

وفي عام ٣٠١ هـ يقتل زعيمهم أبو سعيد الحسن بن بهرام الجنابي بعد أن استولى على هجر ، والاحساء ، والقطيف ، والطائف ، وسائر بلاد البحرين .[٥٣] وكان لموت مقدمهم هذا أثر كبير على أوضاعهم السياسية التي بدأ الضعف يدب فيها ، ولكنهم مع هذا استمروا عائثين في الأرض .. ناشرين الفزع ، ومخلفين الموت والدمار ، وبلغ بهم التطرف والاستهتار الى حد اقتلاع الحجر الأسود عام ٣١٧ هـ وأخذه الى الاحساء مدة اثنتين وعشرين سنة .[٥٤] وفي عام ٣٢٦ فسدت حالهم وقتل بعضهم بعضا ،[٥٥] ومع هذا توالت غاراتهم الى دمشق ، ومنها الى الرملة ، فالديار المصرية ،[٥٦] ومع بداية النصف الثاني من القرن الرابع الهجري يبدأ الجموح القرمطي في الانحسار ، ويرى ابن الأثير[٥٧] أن زوال ناموسهم كان بهزيمة صمصام الدولة لهم عام ٣٧٥ هـ ، وقتل مقدمهم وغيره ، وأسر جماعة منهم ، ونهب سوادهم . ويرى ابن خلدون[٥٨] مثل هذا في تفرق أمرهم وتلاشي دعوتهم بعد تلك الهزيمة ، وكلا المؤرخين متفق على أن ظهور الأصفر (الأصغر) ابن أبي الحسن الثعلبي ـ من بني المنتفق ـ على مسرح الأحداث عام ٣٧٦ هـ كان ايذانا بذهاب دولتهم .[٥٩] فقد حشد لهم جمعا كبيرا ، وتمكن من هزيمتهم ، وقتل مقدمهم ، وأسر العديد منهم ، وتبعهم الى الاحساء ، فتحصنوا منه ، فعدل الى القطيف ، فأخذ ما كان فيها من عبيدهم وأموالهم ومواشيهم ، وسار بها الى البصرة .[٦٠] ثم تمكن عام ٣٩٨ هـ من الاستيلاء على الاحساء ، والخطبة للخليفة العباسي ، وبهذا فقد أذهب دولتهم ، وأقر الأمر له ولبنيه .[٦١] ولكننا نجد أن باحثا[٦٢] معاصرا يبكر قليلا في انهاء دولتهم الى نحو منتصف القرن الرابع الهجري ، اذ دخلوا عام ٣٥٨ هـ في طاعة الخليفة العباسي ، وخطبوا له على المنابر ، ولعله بهذا يشير الى تولي أبي علي الحسن بن أحمد أمر القرامطة عام ٣٥٩ هـ وكان يلقب بالأعصم وقيل الأغنم ، وطالت مدته ، ونفى جمعا كثيرا من ولد أبي طاهر الى جزيرة أوال ، وحج بنفسه ، ولم يتعرض للحاج ولا أنكر الخطبة للخليفة العباسي .[٦٣]

ولكن ابن المقرب يضعنا أمام حقيقة أخرى حين يشير الى الدور الذي نهضت به أسرته في القضاء على القرامطة فيقول :

سل القرامط من شظى جماجمهم
فلقا وغادرهم بعد العلا خدما
من بعد ان جل بالبحرين شانهم
وارجفوا الشام بالغارات والحرما
ولم تزل خيلهم تغشى سنابكها
ارض العراق وتغشى تارة ادما
وحرقوا عبد قيس في منازلها
وصيروا الغر من ساداتها حمما
وابطلوا الصلوات الخمس وانتهكو
شهر الصيام ونصوا منهم صنما
وما بنوا مسجدا لله نعرفه
بل كل ما ادركوه قائما هدما[٦٤]

ثم يواصل حديثه عن دور قومه في حربهم ، والقبائل التي آزرت القرامطة ، كالأزد ، وعامر خاصة . وهذه الاشارة بشرحها الموجز حينا ، والمفصل حينا آخر ، في أكثر من مخطوطة ، وأكثر من مطبوعة للديوان ، واستناد عدد من

دعمى بن جديلة بن ربيعة بن نزاربن معد بن عدنان . ولكن ديوان الشاعر لم يسعفنا في تحديد ذلك البطن من عامر الذي ينتمى اليه العيونيون والاقرب الى الظن أن هذا البطن هم « آل ابراهيم » الذين أشار اليهم . وسموا بالعيونيين نسبة الى موضع بالبحرين يقال له « العيون » ، يقع فى أقصى شمال الاحساء على بعد عشرين ميلا شمالى مدينة الهفوف[٩٥] الحالية .

سبق أن أشرنا الى أن الربع الاخير من القرن الرابع الهجرى ، قد شهد نهاية المد القرمطى ، وتوقف حملاتهم الحربية وتقوقعهم فى البحرين . وفى النصف الأول من القرن الخامس أخذت أحوالهم فى التردى ، وتمكن أبو البهلول العوام بن محمد بن يوسف بن الزجاج ـ وهو من قبيلة عبدالقيس صاحبة السلطة السابقة فى البحرين ـ من اقناع ابن ارحم ناظر القرامطة في أوال ، ان يتدخل لاقناع القرامطة بالسماح لهم ببناء جامع سنى في « أوال » من البحرين تقام فيه صلاة الجمعة ، بهدف تشجيع التجار السنيين على زيارة الجزيرة ، وكان لهم ما أرادوا مقابل مبلغ من المال ، وعند ما تم بناء الجامع عام ٤٥٠هـ ، نهض خطيب الجمعة الوليد أخو أبى البهلول، وخطب باسم الخليفة العباسى القائم بأمر الله ، فغضب المتعصبون للقرامطة من تصرفه ، ولكنهم لم يفلحوا فى منعه .[٩٦] و قوى بعد ذلك نفوذ السنة فى أوال وازداد عدد التجاربها ، مما شجع ابا البهلول على طرد الناظر القرمطى من أوال وتسميته نفسه بالامير . وقد حاول القرامطة استعادة نفوذهم عليها ، والتخلص من ابى البهلول ، فسيروا اليه حملات متلاحقة ، ولكنهم لم يفلحوا في ذلك ، بل هلك كثير من قبيلة عامر ربيعة من عقيل ـ ممن كانت تعتمد عليهم فى حربه ـ[٩٧] فى موقعة كسكوس أوال البحرية[٩٨] .

وكانت قبائل اليمن في الاحساء قد شركت القرامطة فى تدبير أمورهم منذ عام ٤٥٩هـ وتسمى بعضهم بالأمير ،[٩٩]وليس من شك في أن هذه الاحداث كانت بمثابة مؤشرات واضحة ودالة على بداية النهاية للقرامطة ، اذ بدأوا يفقدون نفوذهم على أجزاء من دولتهم وأصبحوا عاجزين عن تأديب الخارجين عليهم ، والطامعين فى سلطتهم من الداخل ، مما حدا بيحيى بن عياش الى الظهور على مسرح الصراع فى البحرين ، يبغى الانفراد بجزء من التركة القرمطية ، أو بها كلها ، فيتصدى لحرب القرامطة فى القطيف ، ويهزمهم ، ويجليهم عنها ، ثم يعلن استقلاله بها ، وتتطلع نفسه بعد ذلك الى بسط سيادته على جزيرة أوال ، ويتم له ما أراد ، منهيا امارة ابى البهلول عليها .[١٠٠] .

وحين حقق ابن عياش هذه الانتصارات المتلاحقة على القرامطة فى القطيف ، وعلى أبى البهلول فى جزيرة أوال ، شجع هذا الصراع شخصية جديدة على الظهور في البحرين فنهض عبدالله بن على العيونى لقتال القرامطة في الاحساء عام ٤٦٢هـ وانتصر عليهم ، فتحصنوا فى الاحساء ..[١٠١] ويبدو أن ظهور العيونيين بزعامة عبدالله بن على فى الاحساء ، كان ثأرا لأبي البهلول من ابن عياش الذي قضى عليه وأخضع أوال لسلطانه وضمها الى القطيف ، واستكمالا لدوره فى حرب القرامطة

والقضاء على مابقى لهم من نفوذ ، وذلك لأن العيونيين شركوا أبا البهلول ثورته على القرامطة ، وحربه لهم ، وقاد بشر بن مفلح العيونى جيش أبى البهلول الذي هزم جموع القرامطة وأنصارهم فى موقعة كسكوس أوال[١٠٢] .

ولم يكن فى مقدور عبدالله العيونى حقيقة أن ينهض بمفرده بهذا الدور الخطير فى قتال القرامطة ، والحد من أطماع ابن عياش ، الذى أخذ يطمع فى بسط سيطرته على الاحساء ، فقد كان أعوان العيونى قلة لا يربو عددهم على اربعمائة مقاتل :

وجمعنا في مئين اربع قصرت
عدا . لكنها اعلى الورى قدما[١٠٣]

ولكنه - على ما يبدو - كان يتمتع بقدر من الدهاء والحنكة ، فبعد ان ابدى صدق النية فى قتال القرامطة ، وشرع يقاتلهم طامعا فى الأحساء ، منذ عام ٤٦٢ هـ [١٠٤] . وحقق بعض الانتصارات ، طلب المعونة من الخليفة العباسى عام ٤٦٧هـ [١٠٥] فكتب الى جلال الدولة أبى الفتح ملكشاه السلطان السلجوقى ، والخليفة يومئذ ابو جعفر القائم بأمر الله (ت ٤٦٧هـ) . والوزير نظام الملك (ت ٤٨٥ هـ)، وشرح له أحوال القرامطة وضعفهم ، وأنه يريد أخذ الاحساء منهم ، واقامة الدعوة للدولة الجلالية العباسية فى الاحساء ، ويميت سنن القرامطة .[١٠٦] وهنا تجدر الاشارة الى أن أبا البهلول قد سبق له مثل هذا الطلب من الخليفة العباسى[١٠٧] ولكن ابن عياش لم يمهله ، وعاجله بالقضاء عليه قبل أن يحصل على موافقة الخلافة بمده بالمعونة اللازمة لقتال القرامطة ، وهذا مما أثار غضب الخلافة على ابن عياش ، لأنه قضى على شخصية موالية لها في أوال من البحرين ، لذا فحين أجاب الخليفة طلب الأمير العيونى عام ٤٦٨هـ [١٠٨] ، وبعث اليه بسبعة آلاف مقاتل بقيادة اكسك سلار ، متجها من البصرة الى الاحساء ، كان الهدف الاول لهذا الجيش تأديب ابن عياش فى القطيف ، الذي هرب معتصما بجزيرة أوال ، ثم انضم اكسك سلار الى الامير العيونى وحاصرا القرامطة في الاحساء ، حتى أشرفوا على الهلاك ولكن جند الخليفة لم يحتملوا مدة الحصار الطويلة ، فعاد اكسك سلار الى الخليفة ، ثم طلب منه العودة لاستئصال القرامطة ، وكان له ما أراد ، وحين عاد الى الاحساء وجد عبدالله العيونى انتهى من حصارهم ، ، وانهاء أمرهم ، وتم له ذلك عام ٤٦٩هـ [١٠٩] على الرغم من استنجادهم بقبائل عامر :

فاستنجدت عامراً من باسها فاتت
مغذة لا ترى فى سيرها يتما[١١٠]

وسارع ابن عياش لا نتزاع الاحساء من العيونيين ، قبل أن يستفحل أمرهم ، ويتهدد وجوده فى المنطقة ، فحشد جموعه ، وساربها نحوها ، فبرز له العيونيون ، ودارت بينهم معركة شرسة ، في مكان يعرف « بجوناظرة » أسفرت عن هزيمة ابن عياش و تقهقره الى القطيف (قصبة حكمه) ، ومن ثم الى أوال فتبعه العيونيون الى جزيرة أوال ، حيث احتل عبدالله العيونى القطيف ، ووجه ابنه « الفضل » إثر جموع ابن عياش فى أوال واستطاع ان يحقق نصرا حاسما ، تخلى إثره ابن

عياش عن أوال «وقتل نفسه»[١١١] ، بعد ان فقد وزيره ، وقائده ، وساعده الايمن « العكروت »[١١٢] والى هذا يشير ابن المقرب بقوله :

ولم ينج ابن عياش بمهجته
يم اذا ما يراه الناظر ارتسما
اتى مغيرا فوافى جو ناظرة
فعاين الموت منا دون مازعما
فراح يطرد طرد الوحش ليس يرى
حبل السلامة الا السوط والقدما
فانصاع نحو أوال يبتغى عصما
اذ لم يجد في نواحى الخط معتصما
فاقحم البحر منا خلفه ملك
مازال مذ كان للاهوال مقتحما
فحاز ملك أوال بعد ما ترك الـ
عكروت بالسيف للبوغاء ملتزما
فصار ملك ابن عياش وملك ابى الـ
بهلول مع ملكنا عقدا لنا نظما

ويسجل ابن المقرب ـ في موضع اخر ـ هذه المسيرة الظافرة لقومه من الاحساء[١١٣] فالقطيف ، فأوال ، فيقول :

فعن هجر ذادوا القرامط عنوة
وقد شركت فيها عتيك وحدان[١١٤]
وساروا الى ارض القطيف فلم يكن
ليمنعها منهم حصون وحيطان
ولم تمتنع منهم أوال بمزبد
من اليم تزجيه شمال ومرخان[١١٥]

ولم يكد عبدالله العيوبى يلتقط أنفاسه ، حتى ظهر خطر بنى عامر ممن انحازوا الى القرامطة ضده ، وقد قطع ما كان لرؤسائهم من العوائد والجرايات أيام القرامطة ، فجاءوا مطالبين بتلك العوائد ، وأجمعوا على حربه ولكنه استطاع هزيمتهم وتبديدهم ، ولم ينج منهم الا رئيسهم احمد بن مسعر ، وأبو فراس بن الشباش ، في جماعة قليلة هربوا الى العراق[١١٦] والى هذا يشير ابن المقرب في ميميته المشهورة :

وطالبتنا بنو الاعمام عادتنا
فلم تجد بكما فينا ولا صمما[١١٧]

وكانت قبيلة الازد تؤازر بنى عامر فى حربهم لعبدالله العيونى :

فاقبلت ورجال الازد تقدمها
كالأسد قد جعلت سمر القنا اجما[١١٨]

ثم يسجل ابن المقرب وصفا لتلك الجولة الحاسمة ، وما أسفرت عنه :

ثم انتحينا لعوف بعدما ورمت
انوفها ففششنا ذلك الورما
دسناهم دوسة مرية جمعت
اسلاهم وضباع الجو والرخما
لم ينج غير رئيس القوم تحمله
خيفانة كظليم ريع تحت سما
ثم انثنينا بجرد الخيل نجنبها
نقائذا وافانا السبى والنعما[١١٩]

ولم يكد ينتهى العيونيون من حسم أمر القرامطة ، ومن حالفهم ، حتى جاء ركن الدين والدولة السلجوقى يبغى الثأر «للبغوش» أخى اكسك سلار :

والشرسكية اذ جاءت تطالبنا
دم البغوش وفينا تقسم القسما[١٢٠]

وكان البغوش قد طمع فى الاحساء بعد معونة أخيه للعيونيين ، فقتله عبدالله العيونى . وقد تمكن العيونيون من صد أولئك الموتورين الطامعين ، والى هدا يشير ابن المقرب بقوله :

ونحن حميناه الاعاجم بعدما
اقامت تروم الملك حولا محرما
ضربنا وجوه الشرسكيه دونه
واقفاءها بالسيف حتى تثلما

وقد غررتهم من نزار ويعرب
لشنانكم قوم وقوم تبرما
فعدنا ببيض ذكرتهم حدودها
بما كان من أخبار كسرى ورستما
فولوا وراح الركن منهم كأنه
صريع عقار بات منها مجشما[١٢١]

وكان عليه أن يواجه بعض الطامحين في بسط سيادتهم على الاحساء كالحسن بن يحيى الذي كانت له السيادة على منطقة القطيف ابان تأسيس دولتهم . وقد حاول استقطاب بعض الأمراء العيونيين ، ببذل المال والذهب والبساتين لهم ، وكان ذا بأس وقوة ، وقد سير اليهم جيشه مرارا للاغارة على الاحساء ، ولكن محاولاته لم تؤت ثمارها المرجوة وفي هذا يقول ابن المقرب :

وحول ابن يحيى لم تصاهل جيادنا
وقد كان بحرا ذا عباب قلهذما
اذال لنا الاموال دراً وعسجدا
وتبرا ونخلا يانعا ومكمما
فعفنا سنيات العطايا حمية
عليكم ودسنا الشر حتى تشرما
وحتى ملكتم ملكه واقتصرتم
مقاصيره اللاتي بناها فاحكما
وقد كان يزجى كل يوم كتيبة
اليكم وجيشا ذا زهاء عرمرما
وقاد اليه الناس بأس ورغبة
وعز ينامي يذبلا ويلملما[١٢٢]

ومثل ابن يحيى « حماد النائلي » ، وهو من بني نائل الذي اجتمعت حوله أحلاف عرب الاحساء ، وتصدى لفتنته هذه أمير القطيف أبو مقدم شكر بن علي بن عبدالله بن علي العيوني ، فهزمه ، وقتل قائد جموعه السبيع بن غفيلة أحد رجالات النائلي ، وأطلق على المكان « الخائس » لكثرة من قتل من جماعة النائلي :

منا الذي عام حرب النائلي جلا
يوم السبيع ويوم الخائس الغمما[١٢٣]

كما كان عليه أيضا أن يواجه أعداء المنطقة التقليديين من العجم الطامعين ، غير من ذكرناهم من (الشركسيين) السلاجقة ، كالقارونى احد ملوك العجم ببلاد قارون :

وسل بقارون هل فازت كتائبه
لما اتتنا وهل كنا لهم غنما[١٢٤]

ولقد حرص مؤسس الدولة العيونية عبدالله بن علي العيوني ، منذ بدء حربه للقرامطة وصراعه مع منافسيه على أن يقيم جسرا متينا من العلاقات الطيبة مع الخلافة العباسية فقد رحب الخليفة القائم بأمر الله بعرضه ، حين طلب المعونة العسكرية للقضاء على القرامطة ، ولا يخفى على أحد ما عانته الخلافة العباسية من غارات القرامطة على جميع أطرافها ، حي بغداد لم تسلم من أذاهم .

وهكذا شهد النصف الثاني من القرن الخامس الهجري ، نهاية الدولة القرمطية ، واماتة سننها ، وبقايا بدعها ، وتصفية أعوانها في المنطقة ، وشهد قيام دولة فتية جديدة ، امتد نفوذها من البصرة الى عمان . وكان العيونيون قد توزعوا نفوذهم بعد وفاة مؤسس دولتهم ، فاستقل آل علي بن عبدالله بحكم الاحساء ونواحيه بينما اقتصر حكم آل الفضل بن عبدالله على القطيف ونواحيه ، وادى هذا الى نشوء نوع من الصراع بين الفرعين القويين

للاسرة العيونية : ثم تمكن الفضليون من بسط نفوذهم على سائر البحرين ، ولكن الصراع بقى مستمرا ،[١٢٥] وكان على الفروع العيونية الأخرى أن تحدد ميلها وولاءها ، وعلى أساس من هذا الولاء وذلك الميل كانت تلقى احترامها ، وأضطهادها ، كما حدث لشاعرنا ابن المقرب ، الذي دفع ثمن ميله للفضليين غاليا من الفرع الاخر المناوىء لهم .

وقد تعاور الامارة العيونية ، منذ قيام دولتهم ، وحتى سقوطها فى النصف الأول من القرن السابع الهجرى ، ما يقارب العشرين أميرا .[١٢٦] وبلغت على يد الرعيل الاول منهم حدا من المهابة وسعة النفوذ ، والى هذا يشيرابن المقرب فى مدحه للامير الحاكم أبى شكر مقدم بن ماجد بن محمد بن أحمد بن محمد بن الفضل بن عبدالله العيونى :

بنى المعالى لهم فضل وشيدها
أبو سنان[١٢٧] قريع العجم والعرب
واحمد[١٢٨] ابنه الملك الذي منعت
ما بين نزوى[١٢٩] سراياه الى حلب[١٣٠]

وبعد الامير محمد بن أحمد أبى الحسين بن محمد أبى سنان بن الفضل بن عبدالله العيونى (٥٨٤ ـ ٦٠٣ هـ) اهم امراء الاسرة العيونية وأخر النخبة الممتازة من حكامهم وقد عاصره شاعرنا ، ومدحه ، وسجل مآثره . وحربه لخصومه ، ورثاه عند موته .

وقد استفحل ملك العيونيين فى زمن هذا الامير ، وامتد نفوذهم الى نجد ، وبادية الشام ، وجعل له الخليفة العباسى الناصر لدين الله خفارة الحاج اذا خرج من بغداد ، حتى يصل الى مكة ، ويرجع منها ، وقرر له فى كل سنة ألفا وخمسمائة حمل من البر ، وألفا ومائتى ثوب من عمل مصر ،[١٣١] والى هذه العلاقة الطيبة يشير ابن المقرب بقوله :

ومال امير المؤمنين بوده
اليه وسماه زعيم الاعارب
حمى البر من حد العراق فحازه
الى الشام واستولى على حد ناعب[١٣٢]

وقد تمكن من تأديب الكثيرين من خصوم دولته ، كبنى عامر حين تحالفوا على حربه عام ٦٠٢هـ [١٣٣] ، ويخاطبهم ابن المقرب مهددا محذرا :

واقسم إن نبهتم الحرب ساعة
وضمكم نحو الامير مغار
لتصطبحن كاسا عليكم مريرة
يطول لكم سكر بها وخمار
بها شربت من قبل عوف بن عامر
غداة دعتها نزقة ونفار
بكف أبيه لا بكف أبيكم
فراحت وفيها ذلة وصغار[١٣٤]

ثم يتوجه اليهم ناصحا بالخضوع لأمره :

فما الراى الا أن تذلوا لحكمه
فليس عليكم فى المذلة عار
وتمسوا كما كنتم جميعاً رعاءة
عسى ان تنالوا نصفة وتجاروا[١٣٥]

وقد واجه فى عهده أطماع البدو ، كبنى مالك ، الذين خرجوا على طاعته ، وجاءوا لحربه ، ولقيهم على « ماء الدجانى » ، في الجانب الغربي من الدهناء ، فلقنهم درسا قاسيا ، قتلا ، وسبيا وقتل الكثير منهم جوعا ، وعطشا ، وقد وصف ابن المقرب هذه الوقعة فى لاميته وصفا دقيقا :

كانكم لم تعرفوا سطواته
اذا الحرب فارت من لظاها مراجل

سلوا تخبروا من غير جهل لفعله
بنى مالك فالحر بالحق قائل
الم يجلب الجرد العتاق شوازبا
من الخط تتلوها المطايا المراسل
الى ان اناخت بالدجانى بعدما
براها السرى والاين فهى نواحل
فصبحن حيا لم تصبح حلاله
قديما ولا رامت لقاه الجحافل
فكم قرم قوم غادرته مجد لا
تقط شواه الخامعات العواسل
وكم مال نحام من القوم أصبحت
تقسم غصبا جله والعقائل[١٣٦]

ثم يواصل حديثه عن هزيمته لهم بقية القصيدة :

كما يصف لنا ابن المقرب وقعة أخرى لهذا الامير مع قبائل عنين ، وطىء ، وزيد ، وعرب الشام ، وكانوا قد انحدروا صائلين على قبائل قيس ، فاهمها ذلك ، واستغاثت بالأمير العيونى ، فلم يخيب رجاءهم ، وحمل عليهم ، ومزقهم شر ممزق :

وكان لهم بالحزم يوم عصيصب
وقد حشدت للحرب تلك القبائل
عنين وال الفضل من آل برمك
وكلهم للعز انف وكاهل
وجاءت زبيد كالجراد وطيىء
وكل يمنى نفسه ما يحاول[١٣٧]

ثم يقول :

فضاقت على احياء قيس رحابها
من الخوف وانسدت عليها المناهل[١٣٨]

ثم يتحدث عن دور آل الفضل من العيونيين فى صد هذه الهجمة ، الى أن يقول :

واقبل ليث الغاب اعنى محمداً
يفتش عن اشباله ويسائل
فقيل له تحت العجاجة دابهم
طعان العدى فى حيث تخفى المقاتل
فاوردهم صدر الحصان كانه
باخذ نفوس القوم بالسيف كافل
فطاروا سلالا من اسير وهارب
ومن هالك تبكى عليه الثواكل[١٣٩]

ويشير ابن المقرب فى نونيته ، الى الحملات التى قادها هذا الأمير ، والجهد الذي تحمله فى المحافظة على تماسك دولتهم ، والاعداء الذين هزمهم ، ممن كانوا يطمعون فى دولتهم ـ غير من سبق ذكرهم ـ كأهل القطيف ، وبنى سليمان ، وبنى لبيد ، وأهل عمان ، وعدوان ، فيقول :

لما اتت اهل القطيف بجحفل
متوقد كتوقد النيران
فى آل حجاف وآل شبانه
مثل الاسود بحافتى خفان
وتسربلوا حلق الحديد واقبلوا
بالخيل والرايات كالعقبان
فرى الامير جموعهم فتمزقت
كالشاء اذ جفلت من السرحان
وتحكمت فيهم حدود سيوفه
ضربا فويق معاقد التيجان[١٤٠]

ثم يشير الى حملات أخرى قادها بغية تأديب من حدثتهم أنفسهم بالخروج على طاعته :

وهو الذي قاد الجياد عوابساً
تحت العجاج الى بنى سلمان
وبنى لبيد كلها فاجتاحها
بدراك غارات وحسن طعان
واتت اليه بالخراج مطيعة
خوفاً من الغارات اهل عمان
وتزعزعت رهبا فجاءت تبتغى
منه الذمام الشم من عدوان[١٤١]

وقد سار هذا الامير على سياسة من

سبقه من حكام دولتهم ، في الولاء للخلافة العباسية ، وقد سبقت الاشارة الى تكليف الخليفة له بحماية قوافل الحج ، كما ساعد الخلافة فى الضرب على أيدى بعض العصاة والخارجين من عرب البادية ، أمثال قوم دهمش بن سند بن أجود ، فقد شكاه الحاج الى الخليفة الناصر لدين الله ، الذي بعث بدوره رسولا الى الأمير محمد بن أبى الحسين يخبره بذلك ، ويحثه على النهوض اليه وقومه والتنكيل بهم ، فكان له ما أراد ، اذ لقيهم بظاهر الكوفة وهزمهم ، ونكل بهم ، ولجأ زعيمهم الى مشهد الامام على ـ كرم الله وجهه ـ واقام به مستجيرا ، حتى جاء رجال الخليفة ، وقبضوا عليه ، واستاقوه الى بغداد .[١٤٢] والى هذا يشير ابن المقرب فى ميميته المشهورة :

منا الذي ضربت حمر القباب له
بالمشهدين واعطى الامن وانتقما
لولا عياذ بنى الجراح منه به
لصاحبت دهمشا او الحقت درما[١٤٣]

وترسم ابنه الامير الفضل بن محمد بن أبى الحسين ـ من بعده ـ سياسته فى الابقاء على صلاتهم الطيبة مع الخلافة العباسية ، متحملا المهام التى نهض بها والده بتكليف منها ، نظير مساعدات عسكرية ، كانت الخلافة فى بغداد ـ على ما يبدو ـ قد التزمت بها للأمراء العيونيين ، لينهضوا بما تكلفهم به من مهام . والى هذا يشير ابن المقرب فى مدحه للأمير الفضل بن محمد بى أبى الحسين :

رضى الخليفة هديه واختاره
وحباه بالحظ الجزيل الاوفر
لباه جهرا واصطفاه له فتى
من بين ابناء النبيت وقيذر
وامده بخزائن لو صبحت
ذات العماد لاذنت بتدعثر
فيها المجانيق العظام يحفها
نفط تاجج ناره بتسعر
وقسى اسد لا ترد نصالها
زبر الحديد ولا صفيح المرمر
وقضى اليه أن حكمك نافذ
ماض باكناف العراق وتستر[١٤٤]
فاضمم اليك الجيش وانهض وافتتح
ماشئت من بلد وجد وشمر[١٤٥]

والمعروف ان شاعرنا قد سفر يوما لدولته ، لدى بلاط الخليفة الناصر لدين الله عام ٦٠٦هـ ، الخزائن من بغداد الخزائن التى أمد بها الناصر الفضل بن محمد بن ابى الحسين بعد مقتل والده .[١٤٦] .

ولكن الملاحظ ان شعره فى الفترة الأخيرة ، التى شهدت ضعف حكامهم ، وصراعهم على السلطة ، وتوثبهم ببعض ، قد خلا من مثل هذه الاشارات ، الى تلك العلاقات الطيبة الوطيدة ، بين خلفاء بنى العباس وحكام الاحساء ، ولعل هذا يعود لأمرين :

أولهما : أن الحكام العيونيين قد أصبحوا عاجزين عن أداء خدماتهم للخلافة .

وثانيهما : أن الخلافة نفسها كانت تعانى مرض الشيخوخة ، وقد أوشكت نهايتها ، فلم تعد قادرة على الاستمرار في مثل هذه العلاقات ، التى تكلفها ماليس في وسعها .

وعلى الرغم مما بذله الامير محمد بن أبى الحسين من جهود ، الا انه قد قتل غيلة ،[١٤٧] ، بمؤامرة حاكها رجال من

أسرته ومن بني عامر . وقد رثاه ابن المقرب رثاء يفيض أسى ولوعه ، وكأنه بحسه المرهف كان يعرف ما يعنيه موت هذا الامير ، وقد اتضح فعلا من ديوانه ، ان موته كان نقطة تحول خطيرة في تاريخ الدولة العيونية فقد بدأ الضعف يدب في كيانها من مناح مختلفة بعد ذلك .

يا سوء حظ بني نزار بعده
وشقاء حاضرها وشؤم بداتها
رجفت لمهلكه البلاد وزلزلت
وغدا مناخ الذل في حجراتها
ان نبك مصرعه أسى فلقد بكت
جزعا عليه الجن من ستراتها
كانت به البحرين جنة مأرب
أيام بهجتها وطيب حياتها
حتى اذا ما الترب واري شخصه
أبدت يد الايام عن سوآتها(١٤٨)

وقد أثرت الوقوف عند هذه الشخصية العيونية القوية ، والتي بلغت دولتهم في عهده قمة أوجها ، وعرضت في هذه العجالة للجهود المضنية التي تجسمها في المحافظة على هيبة دولته ، لنحد من الأطماع التقليدية في سلطتهم ، وللحيلولة دون ظهور طامعين جدد .

فقد أردت من خلال هذا تقديم صورة لوضع هذه الدولة ، والتي - كما يبدو - قد حرمت الاستقرار والأمن ، حتى في عهود الأقوياء من رجالها ، وبالطبع كان لهذا الوضع المهتز ، القائم على التوجس ، والحذر ، والريبة ، أثره على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والعقلية .. وان كنا لا نستبعد أن تكون هذه الدولة قد نعمت بشيء من الرخاء في عهد أمرائها الأول ، ففي مطولة ابن المقرب «الميمية» عدة أشارات الى العطايا السخية لأولئك الأمراء .

ويرى الدكتور شوقي ضيف «أن هذه العطايا لتدل على الرخاء الذي نعمت به تلك الديار في عهد هؤلاء الأمراء (١٤٩) . ولكن ينبغي الحيطة من الأخذ بما جاء في شرح هذه الأبيات ، والانتخذها دليلا أكيدا على رخاء تلك الديار آنذاك . فقد أسهب الشارح في ايراد قصص الكرم العيوني ، وهي قصص لا تخلو من مبالغة ، مما يرجح الظن أن شارح الديوان الذي مازال مجهولا يمت بصله قوية الى البيت العيوني . وبالاضافة الى ذلك ، فليس معنى سخاء حاكم ما أن رعيته تعيش في بحبوحة من العيش ، بل كثيرا ما تكون مظاهر بذخ الحكام واسرافهم على حساب رخاء رعاياهم .

كما نجد في «ميمية» الشاعر اشارات يسيرة الى عطايا هؤلاء الأمراء لبعض الشعراء ، مما حدا بالدكتور شوقي ضيف أن يقول : «أن هذه العطايا للشعراء في عهد أولئك الأمراء ، لتدل على أنه كانت هناك نهضة أدبية ، رعوها خير رعاية»(١٥٠) .

يروي لنا شارح الديوان أن أمير القطيف أبا سنان محمد بن الفضل ، كان بحرا فياضا مثل أبيه الفضل ، وأن عامله على البحرين جاء اليه بمال

ولآلىء وجواهر كثيرة وتصادف أن كان في مجلسه شاعر عراقي يعرف بالثعلبي دبج فيه مدائح كثيرة فقال للعامل : ادفع المال اليه ، وكان فيه جوهرة بألف دينار ، فبهت العامل ، ومات على الأثر . وفي ذلك يقول ابن المقرب :

منا الذي من نداه مات عامله
غما واصبح في الاموات مخترما (١٥١)

كما يذكر الشارح أن أبافراس غرير بن محمد أبي سنان قد امتدحه يوما الثعلبي شاعر أبيه بقصيدة فطلب الى صاحب خزائنه أن يعطيه جميع مفاتيحها ، ويتنحى بعيدا ليأخذ منها مايريد ، فقال الثعلبي : في بعض ذلك غنى وسعه ، ويكفيني ألف دينار ، فأمر بأربعة آلاف له وفي ذلك يقول ابن المقرب :

منا الذي جاد إيثارا بما ملكت
كفاه لا يديجزيها ولا رحماً(١٥٢)

ويذكر الشارح أن أمير القطيف أبا الحسن بن عبدالله بن علي قد حضره ذات يوم أربعون شاعرا ، فأعطاهم أربعين فرسا مسرجا ملجما، وفي ذلك يقول ابن المقرب:

وجاد في بعض يوم وهو مرتفق
بأربعين جوادا تعلك اللجما(١٥٣)

وقد استوقفني طويلا أخبار الشارح تلك ، ولكن حذري منها حال دون أخذي بها وشجعني على ذلك أن الثعلبي شاعر مجهول تماما ، ولا يعني تردد شاعر مجهول على بلاطهم ان هناك نهضة أدبية ، وانهم رعوها خير رعاية . كما ان وفادة أربعين شاعرا ذات يوم على أمير ، أمر مبالغ فيه ، ولم نسمع به في عصور الازدهار ، الا فيما نعلم عن بلاط دار الخلافة وسيف الدولة وما أشبهه أو اذا كانوا من أولئك البدو ممن يتحلقون للسمر في بيوت الأمراء ، ويتناشدون الأشعار النبطية أو ما شابه ذلك ، ولا يعد وجودهم دليل نهضة أدبية ، كما أننا لم نسمع عن شاعر من تلك الدولة سوى ابن المقرب . وربما كانت هذه الأخبار اشارات الى خطوات على طريق نهضة أدبية ، لم تتح لها ظروف دولتهم المضطربة أن تنمو وتزدهر .

ومع مطلع القرن السابع الهجري ، كانت الدولة العيونية ، تشهد أخر عهود الأقوياء من حكامها ، بزعامة الأمير محمد بن أبي الحسين لها ، والذي كان من حسن طالعه ، تألق نجم شاعرنا أيامه ، فسجل لنا هذه الفترة من خلال مدحه له ، واعجابه ببطولاته وما أن طويت صفحة هذا الأمير ، حتى أطلت الفتنة برأسها ، وكان على الأمير الجديد الفضل بن محمد بن أبي الحسين أن يملأ الفراغ الذي خلفه والده ، فسعى جاهدا للصمود في وجه التحديات والأخطار ، وكانت له مواقف مشرفة ، كتأديبه لبني عقيل المتآمرين على الدولة ، فقد دعوا أهل السيب (١٥٤) من عرب العراق ، وتحالفوا معهم

للقضاء على العيونيين ، ولكنهم هزموا شر هزيمة أمام الفضل ورجاله :

اشبهت والدك الهمام وانما
عرفت بنو الأساد من أصواتها
وحميت دار أبيك منك بهمة
الجود والاقدام من هاماتها
من بعد ماجمعت عقيل كيدها
بالراي من عقالها وغواتها
ودعت بأهل السيب فابتدأت بها
من شط دجلتها وشط فراتها
تتلو المعلي حيث سار وانه
للفارس الولاج في غمراتها
فصبرت صبر الأكرمين ولم تخم
عن زحفها يوماً ولا غاراتها[١٥٥]

ثم يواصل وصفه لما أوقعه فيهم من خسائر ، الى أن يقول من القصيدة ذاتها :

تركت نساء السيب تبكي حسرة
لولاتها وتطيل من ويلاتها

ولكن الأمير الفضل لم يستطع أن يواصل صمود وسلفه ، فقد اضطر عام ٦٠٦هـ الى توقيع صلح من ملك جزيرة قيس غياث الدين شاه بن تاج الدين جمشيد وتنص معاهدة الصلح هذه على تنازلات عيونية كبيرة . [١٥٦]

وقد شعر ابن المقرب بهذا الضعف الذي بدأ يدب في كيان دولتهم ، فأخذ يحذر وينصح ، ولم يجد آذانا صاغية ، بل لقد قوبل بالاهانة والسجن والنفي :

أوليس جهلاً أن تسيم بمرتع
أكلت به المعزي لحوم رعاتها
أعربت حين دعوت الا أنه
لا يبلغ الأموات صوت دعاتها
فانهض وسل الهم عنك بجسرة
روحاتها تربي على غدواتها
وارغب بنفسك أن تقيم ببلدة
عصفورها يسطو بشهب بزاتها
إن يرض قومي الهون في فطالما
عمداً أهنت النفس في مرضاتها
كم قد غدوت ورحت غير مقصر
في لم فرقتها وجمع شتاتها[١٥٧]

الى أن يقول من القصيدة ذاتها :

ولرب لاح قال لي وجفونه
سكري الى الاماق من عبراتها
هون فقومك يا على حياتها
كمماتها ومماتها كحياتها
لو كان فيهم من همام ماجد
لم تسق مر الضيم من راحاتها

ثم يتولى الأمير علي بن ماجد بن محمد بن أبي الحسين بن محمد بن الفضل الحكم بعد عمه الفضل ، فيعيد الى البحرين شيئاً من الاستقرار ، وينهض ببعض الاصلاحات :

لله درك يا على فلم يعد
الاك في هذا الزمان مهذب
أضحت بك الاحساء ساكنه وقد
رجفت بمن فيها وكادت تقلب
لو لم تداركها وترأب صدعها
لغدت بها خيل الهلاك توثب
أحييتها بعد الممات وبعدما
قامت بواكيها تنوح وتندب
ومنعتها من بعد ماكانت سدى
في كل ناحية تغار وتنهب
وملأتها عدلاً وكانت عممت
جوراً تغوربه الديار وتخرب
حتى كانك والمشبه صادق
عمربها وكانها لك يثرب[١٥٨]

عفاء على البحرين لو قيل اينعت
زنابير واديها وجادت زروعها
فهل ذاك الا للعدو وعصبة
سيشقى بها متبوعها وتبوعها[٢٠١]

وكان لهذا الاضطراب السياسى ، وفقدان السلطة الحاكمة لهيبتها أثره فى الحياة الاجتماعية ، فانحطت الأخلاق ، وشاع الفساد ، وتدهورت القيم الأخلاقية ، وأصبح المال غاية همهم، ناهيك عن الثمن .

وسوداء مومسة أجل لديهم
من عالم حبر وأدنى مقعدا
وبمصلح لا بل بألفى مصلح
لا يعدلون خبيث أصل مفسدا
لو قيل كن هوداً لأشرف رتبة
منهم ودونك درهما لتهودا[٢٠٢]

وهذا مؤشر واضح وقوى ، على النهاية الحتمية الوشيكة لدولتهم ، بعد ان أصبحت بلادهم .

أماكنا لعبت أهل الفساد بها
فدمروها بلا فكر ولا نظر[٢٠٣]

وقد ترتب على سوء تصرف الأمير أبى القاسم مسعود بن محمد ، أن سخطت عليه الأسرة العيونية ، ونفضت يدها من مناصرته ، لتجريدهم ممتلكاتهم ، فتلاشت سلطته ، وتقلص نفوذ العيونيين من ذلك الحين ، وما هى الا سنوات قليلة ، سيطر بعدها بنو عصفور رؤساء بنى عقيل بن عامر على شئون الحكم ، وذلك فى العقد الرابع من القرن السابع من الهجرة[٢٠٤] .

كما يذكر ابن خلدون فى تاريخه[٢٠٥] « ان ابن سعد قال : سألت أهل البحرين حين لقيتهم بالمدينة النبوية عام ٦٥١هـ عن البحرين ، فقالوا : الملك فيها لبنى عامر بن عوف بن عامر بن عقيل ، وبنو ثعلب من جملة رعاياهم ، وبنو عصفور منهم أصحاب الاحساء ».

وفي عام ٦٣٣هـ يطغى المد الزنجى الفارسى على المنطقة ، بقيادة أبى بكر بن سعيد الزنجى ، الذي وسع مملكة فارس ، فاستولى على جزيرة قيس عام ٦٢٦هـ ، وكان بها بنو قيصر ، فانتزع الجزيرة منهم ، ثم استولى على جزيرة أوال ، ثم عبر منها الى القطيف عام ٦٤١هـ فاحتلها ، وزحف بجنده نحو الاحساء ، فانتزعها من أهلها .[٢٠٦]

وأرى ان هذه النهاية للدولة العيونية ، التى اتفق عليها ـ تقريبا ـ من أرخوا لهذه الدولة ، أو اهتموا بتاريخ هذه المنطقة ، تعد نهاية منطقية ، وحتمية لتطور الأحداث والتى عرضها ابن المقرب عرضا صادقا ووافيا ، يسهل منه توقع نهاية هذه الدولة وتحديدها فاذا ماوضعنا فى أذهاننا أن وفاة شاعرنا كانت عام ٦٣٠هـ فالأدنى للمنطق ان تنتقل السلطة الى سواهم ، بعد وفاته بقليل ، أى في وقت لا يزيد عن العقد الرابع من القرن السابع الهجرى .

وهكذا دام حكم العيونيين مائة وسبعين عاما تقريبا ، وليس صحيحا أنه استمر ثلاثة قرون كما يذكر العبيدى .[٢٠٧] وكان الفضل بن محمد بن مسعود آخر حكامها .[٢٠٨]

وبعد هذا العرض السريع لقيام الدولة العيونية ، والذي وقفنا فيه عند مؤسسها عبدالله بن علي ، والدور الكبير الذي نهض به فى اقرار سلطتهم ، عند آخر حكامها الأقوياء محمد بن أبى الحسين . وخرجنا من هذه الوقفة بأن أمراء هذه الدولة كانوا يعترفون بسلطة بغداد الرمزية عليهم ، وكانت هذه الدولة عربية

بحته ، وعصبتها يمثلون كثرة ساحقه في البحرين ، وأن الطابع البدوى كان مسيطرا الى حد كبير على أجهزة الدولة ، وعلى نظام الحكم فيها ، وأنها قد افتقرت طوال مدة حكمها للاستقرار والامن ، وأن أعداءها ـ وهم كثر ـ لم يكفوا عن ازعاجها ولم تحل هيبة حكامها الأقوياء دون أطماعهم فيها ، وقد لاحظنا مع مطلع القرن السابع ان أحوالها قد أخذت تسوء ، وتؤذن بزوال فمنيت فى آخر أيامها بعدد من الحكام الضعاف ممن كانت تنقصهم الدراية بسياسة البدو ، وفى العقد الرابع من هذا القرن ، كانت السلطة قد خرجت تماما من أيديهم الى بنى عصفور ، زعماء بنى عقيل بن عامر .

ولعله من المناسب أن نوجز العوامل التى أضعفت دولتهم :

ـ وفي مقدمة هذه العوامل « الصراع القبلى » بين العيونيين وبدو الاحساء ، كبنى عامر ، وبنى عقيل ، وبنى مالك .. وغيرهم ، وقد عانت الدولة كثيرا من هذا الصراع ، الذي استنزف الكثير من طاقاتها ، منذ تأسيسها وحتى سقوطها .

ـ يلى هذا عامل لا يقل عن سابقة أهمية ، وهو انقسام الاسرة العيونية ، وتنافس أمرائها على السلطة ، وتوثبهم ببعض ، وقد اتخذ تنافسهم شكلا دمويا فى أخريات أيام دولتهم ، وكان أعداؤهم من البدو حريصين على هذا التنافس ، وذلك الانقسام ، وتدبير الاغتيالات لبعض امرائهم وكان النزاع على الحكم بين فرعى فضل وعلى ، أقوى فروع الاسرة العيونية .

ـ ثم وفاة الأمير محمد بن أبى الحسين ، ومجيء حكام ضعاف تنقصهم الخبرة بسياسة البدو ، مثل غرير بن الحسن ، وماجد بن محمد ، وأبو القاسم مسعود بن محمد .

ـ صراعهم مع حكام جزيرة « قيس » .

ـ والوقوف فى وجه العجم الطامعين فى في الاحساء « كالقارونى » والشركسيين الذين جاءوا بقيادة ركن الدولة للثأر « » للبغوش » أخى اكسك سلار .

ـ صراعهم مع بعض الشخصيات القوية في الاحساء ، ممن كانوا يتمتعون بالسيادة على اجزاء منها أبان تأسيس دولتهم كالحسن بن يحيى ، وحماد النائلى .

ـ ويجب أن لا نغفل سوء الاحوال الاجتماعية والاقتصادية ، فقد عانت البحرين أيام حكمهم من تلاحق الغارات عليها ، وتجريد الحملات لاخماد الفتن فيها ، وتفشى الظلم الذي راح ضحيته عدد من أبناء الأسرة العيونية نفسها ، ممن لم يعجبهم تخاذل حكامهم ، وأدى ، بالتالى ـ الى نزوحهم عن وطنهم ، قاصدين العراق وفارس ، وكان شاعرنا ابن المقرب الضحية الأولى والكبرى الذى ذاق الوانا من ظلم ذوى قرباه ، ولم تكن الرعية أحسن حالا ، فقد كثرت اشارات ابن المقرب الى سوء احوالها ، وفساد أخلاقها ، وضعف النفوس فيها .

ولم يكن من الممكن ازدهار حياة عقلية فى دولة كان هذا حالها ، وذاك طابعها فلم نجد فى شعر ابن المقرب اشارات لاهتمام حكامهم بالعلم والعلماء ، ولم نسمع عن شاعر قد سعى مادحا الى بلاطهم ، سوى ذلك الشاعر المغمور المسمى « بالثعلبى » كما كان يفعل حكام الدويلات المستقلة عن الخلافة ، حين كانوا يحاولون الظهور بمظهر يليق باستقلالهم فاستكثروا في

بلاطهم من العلماء والشعراء .

ولعل هذا لم يكن ذنب العيونيين ، بقدر ما هو ذنب العصر الذي أقاموا فيه دولتهم ، عصر انحطاط الدولة الاسلامية وتمزق أوصالها ، واحاطتها بشتى الأخطار كما أن تاريخ هذه الدولة لا زال بحاجة الى المزيد من جهد الباحثين والمتخصصين لا لقاء المزيد من الضوء عليه .

عصره : المكان

تحتل المنطقة التى عرفت قديما باسم « البحرين » ثم باسم « هجر » ثم باسم «الاحساء » ثم أطلق عليها فى عهدنا الحاضر اسم « المنطقة الشرقية » الممتدة على الساحل الغربي للخليج العربي ، والتى تمثل الحد الشرقى الاقصى للوطن العربي ، موقعا فريدا بالنسبة للعالم ، فسواحلها الغربية تضم . المنافذ الطبيعية للأقاليم الداخلية الفسيحة لشبه الجزيرة العربية ، كما تجاور ساحلها الغربي أغنى أماكن العالم بزيت النفط .

وتبرز أهمية الموقع الاستراتيجي للخليج العربي بين قارات العالم أسيا وأوربا وأفريقيا بأنه ذراع المحيط الهندى البحرى ، والذي يقرب المسافة عبر منطقة الهلال الخصيب بين المحيط والبحر المتوسط ، فموقعه المتوسط هذا جعل منه ممراهاما يصل الهند من ناحية ، وشط العرب من الناحية الأخرى .[٢٠٩] .

أما عن أهمية الموقع بالنسبة للجزيرة العربية ، وما جاورها من الامصار ، فحسبنا أن نذكر أن الجزيرة العربية قد عرفت منذ أقدم عصورها طريقين أساسيين للقوافل التجارية بين طرفيها الشمالى والجنوبى . ويبدأ الطريقان من « ظفار » التى كانت المركز الاساسى لتجارة البخور ، التى يعتمد عليها الشطر الاكبر من التجارة العربية ، ويجرى الطريقان الى الشرق والغرب منها ، ليتجنبا اختراق تلك الصحراء الرهيبة المعروفة بالربع الخالى . أما الطريق الشرقى فيمضى متاخما لقوس عمان الساحلى متجها الى القطيف على الخليج العربي ، التى كانت مرفأ تحمل اليه بضائع الهند ومن القطيف عن طريق تدمر الى فلسطين وصور بسوريا ، وليس من شك في أن هذا الطريق كان الطريق الاساسى الذي تنقل فيه بضائع الهند الى صنعاء باليمن ، ومنها الى ثغور البحر الاحمر أو الى الحجاز »[٢١٠] .

وقد شهدت هذه المنطقة ـ لأهمية موقعها ـ صراعا طويل الأمد بغرض الاستحواذ على طرقها التجارية وخيراتها ، فكانت مسرحا للاطماع والغزوات الخارجية عبر قرون عديدة ، ومن أمم مختلفة . « والمنطقة الشرقية » من أحفل الأقطار العربية بالحوادث التاريخية ، التى تدعو المؤرخين الى العناية والاهتمام . فقد كانت مهدا لشعوب عريقة فى الحضارة ، كما دلت على ذلك الآثار التى كشف عنها حديثا فى سواحل هذه البلاد ، وفى جزيرة « أوال » المعروفة الآن باسم « البحرين » .. ثم هذا القطر من حيث الخصوبة والموقع المتوسط يعد من خيرة أقطار الجزيرة العربية وأصلحها للاستيطان ، فتنازعته قبائل عربية مختلفة ، من « تنوخ » و « إياد » ، و « ربيعة » وغيرها من القبائل

فصار مسرحا لكثير من حوادث البطولة فى العصر الجاهلى[٢١١] .

ومن هذا القطر أيضا انطلقت ثورتان عنيفتان غريبتان فى تاريخ الاسلام ، ثورة « صاحب الزنج » التى دعت الى تحرير العبيد ، وثورة « القرامطة » الى دعت الى نوع من العدالة الاجتماعية المتطرفة ، فأزعجت بنى العباس ، وعاثت فسادا فى سائر الاقطار العربية ، حتى أطلق بعض المؤرخين على دولتهم « الامبراطورية القرمطية » .

ولكن حين نقلب كتب التاريخ العربي ـ على ضخامتها وكثرتها ـ نجد انها قد أغفلت هذه المنطقة الهامة من العالم العربي ، فيما عدا تأريخها لهاتين الثورتين اللتين استطاعتا لفت انظار العالم الاسلامى آنذاك الى هذه المنطقة لفترة محدودة ، وبقى تاريخ البحرين ، القديم مفصم الحلقات غير متصل ، حيث ان الفصول التى عثر عليها منه تكاد تكون مفصومة ، للوقت الحاضر[٢١٢] .

ولعل سبب اهمال تاريخ هذا القطر ـ على أهميته ـ ان تاريخنا هو تاريخ حكومات وأفراد ، لا تاريخ أمم وشعوب واقاليم[٢١٣] .. هذا من جانب ، ومن جانب آخر عدم قيام دويلة مستقلة على أرضه ، في ذلك الزمان تتمتع بقدر من المدنية ، ونظم الحكم المستقرة كالتى شهدناها في أنحاء كثيرة من العالم الاسلامى في العصر العباسى الثانى ، فقد كان لهذه الدويلات من المكانة ، ما جعلها تنافس الخلافة فى بغداد . أما عن الدولة العيونية ـ وسيأتى الحديث عنها ـ التى حكمت زهاء قرنين فى البحرين فى أواخر العصر العباسى الثانى ، فقد كانت الى طابع البداوة أقرب ، كما أنها قد حرمت نعمة الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعى .

ثم يصمت التاريخ عن هذه المنطقة الشاسعة ، وتتقوقع على نفسها ، ومثلها سائر شبه الجزيرة العربية ، اللهم الا اليمن ، ومكة ، والمدينة التى بقيت نابضة بالحياة . وعادت القبائل العربية تتنازع السيطرة على اجزائها ، معيدة بذلك سيرتها الأولى .

ومع بداية هذا القرن أخذت الحياة تدب على أرض الاحساء قوية نشطة ، وزادت أهميتها بكشف موارد البترول فى ارضها ، فقد قلب هذا السائل السحرى مجرى تاريخ طبيعة البلاد ، ورفع مستواها[٢١٤] وليس بين أقاليم المملكة العربية السعودية اقليم يضارع مقاطعة الاحساء أو يدانيها فى شهرتها العالمية ، فقد اكتشف الخبراء ان تحت سطح أرضها مستودعات زاخرة بالنفط ، ولا يقل احتياطيها من البترول عن ثلثى الاحتياطى العربي »[٢١٥] .

تقع البحرين في شرقي الجزيرة العربية .. ويقول صاحب معجم البلدان : [٢١٦] «والبحرين اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند (الخليج العربي) بين البصرة وعمان» وقد اختلف جغرافيو [٢١٧] العرب القدامي في تحديد رقعتها ، وكانت تحديداتهم لها مرتبطة بالحدود السياسية ، وهذه الحدود لم تكن تعرف الثبات أنذاك ، فهى تتسع تارة ، وتضيق أخرى ، تبعا لقوة السلطة الحاكمة أو ضعفها ، فحين يعد بعضهم «اليمامة» من أعمالها ، يرى ياقوت أنها عمل برأسه في وسط الطريق بين مكة والبحرين ...[٢١٨] .

الهوامش

١ ـ د. مصطفى الشكعة : سيف الدولة الحمداني : ص٧ : دار القلم : القاهرة ١٩٥٩م .

٢ ـ محمد طلس : تاريخ الأمة العربية : جـ٤/ص٥ : دار الاندلس : بيروت ١٩٦٣ .

٣ ـ نظام الملك : ابو علي الحسن بن علي بن اسحق . ت ٤٨٥هـ ، وقد تقلد الوزارة لألب ارسلان وملكشاه نحوا من ثلاثين سنة ، وكان عالما دينيا جوادا عادلا حليما ، محبا للعلماء ، وقد بنى المدارس في سائر الأقطار والبلاد (انظر : ابن الأثير : الكامل ١٦١/٨ ـ ١٦٣ : مطبعة الاستقامة بالقاهرة) .

٤ ـ بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية : ص١٣٥ : ترجمة نبيه فارس ، ومنير بعلبكي دار العلم للملايين : بيروت ١٩٤٨م .

٥ ـ انظر تاريخ الشعوب الاسلامية : ١٣٥ .

٦ ـ انظر تاريخ الأمة العربية : ج٤ ص٥ .

٧ ـ جعفر خصباك : العراق في عهد المغول : ٥ : مطبعة العاني : بغداد : الطبعة الأولى ١٩٦٨ .

٨ ـ الناصر لدين الله : أحمد ـ أبو العباس ـ بن المستضيء ، بأمر الله ، ولي الخلافة عام ٥٧٥هـ ، كان من افاضل الخلفاء واعيانهم ، بصيرا بالأمور ، مجربا ، مهيبا ، طالت مدته وصفا له الملك ، كان وقته مصروفا الى تدبير امور المملكة ، والى التولية والعزل والمصادرة وتحصيل الاموال ، توفي عام ٦٢٢هـ (ابن طباطبا ـ تاريخ الدولة الاسلامية : ٣٢٢ : دار صادر ، بيروت ١٩٦٠م) .

٩ ـ العراق في عهد المغول : ١٣ .

١٠ ـ السيوطي : تاريخ الخلفاء : ٤٨٠ : تحقيق لجنة من الأدباء : دار الثقافة : بيروت (بدون تاريخ) . وانظر : ابن الأثير : الكامل : ٣٣١/٩ ، ٣٦١ .

١١ ـ انظر تاريخ الشعوب الاسلامية : ٢٥٨ .

١٢ ـ المستنصر بالله : أبو جعفر منصور بن الظاهر بأمر الله ، ولي الخلافة عام ٦٢٣هـ عرف بكرمه وشهامته ، وله من الآثار الجليلة «المستنصرية» كانت

أيامه طيبة ، والدنيا في زمانه ساكنة ، توفى عام ٦٤٠هـ (انظر تاريخ الدولة الاسلامية ٣٣٠ وانظر تاريخ الخلفاء ٤٩٠).

١٣ ـ المستعصم بالله : قتيل التتار ، تولى الخلافة عام ٦٤٠هـ ، وتوفى عام ٦٥٦هـ (انظر : تاريخ الدولة الاسلامية ص ٣٣٣ ، انظر : تاريخ الخلفاء : ص٤٩٧)

١٤ ـ تاريخ الدولة الاسلامية : ص٣٣٣ .

١٥ ـ انظر : تاريخ الأمة العربية : ٤/٥ .

١٦ ـ انظر : تاريخ الأمة العربية : ٤/١٢١ .

١٧ ـ انظر : المرجع السابق نفسه ٤/١٢١ ـ ١٢٢ .

١٨ ـ د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسي : ٤/١٣٥ ، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٧ .

١٩ ـ انظر تاريخ الشعوب الاسلامية : ٣٢٦ .

٢٠ ـ الملك الاشرف : ابو الفتح موسى بن الملك العادل سيف الدين أبي بكر بن أيوب الملقب بالملك الأشرف ، وهو أحد ملوك بنى أيوب ، كان سلطانا كريما ، حليما ، واسع الصدر ، كريم الاخلاق ، ولد عام ٥٧٨هـ ، وتوفى بدمشق عام ٦٣٥هـ . (انظر : وفيات الاعيان : ٤/٤١٣) تحقيق محمد محى الدين عبدالحميد ، النهضة المصرية : ١٩٤٨ .

٢١ ـ عبدالفتاح الحلو ديوان ابن المقرب : ٣٠٠ مطبعة الحلبي : القاهرة : الطبعة الأولى ١٩٦٣م . وباقت عليه البوائق : أصابته الشرور والدواهى .

٢٢ ـ الديوان : ٣٠٠

٢٣ ـ تاريخ الشعوب الاسلامية : ٣٥٣

٢٤ ـ انظر : تاريخ الأمة العربية ٤/٨ .

٢٥ ـ تاريخ الاسلام السياسى٤/١٣٥ .

٢٦ ـ انظر : تاريخ الأمة العربية ٤/٥ ـ ٦ .

٢٧ ـ انظر : المرجع نفسه .

٢٨ ـ انظر : محمد صالح : الحياة السياسية في العراق في العصر العباسي الأخير : ٣ : مطبعة القضاء : النجف الاشرف : ١٩٧٠م .

٢٩ ـ انظر : بدرى فهد : تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير : ٣٣٨ : مطبعة الارشاد ببغداد ١٩٧٣م .

٣٠ ـ بدرى فهد : تاريخ العراق في العصر العباسي الأخير : ٣٥٠ .

٣١ ـ المرجع نفسه : ٣٧٠ ـ ٣٧١ .

٣٢ ـ الديوان : ٢٢٤ .

٣٣ ـ القصيدة السابقة : ٢٢٧ ـ ٢٢٨ .

٣٤ ـ الديوان : ٢١٣ .

٣٥ ـ شمس الدين باتكين الرومى الناصرى ، كان مملوكا لابنة الخليفة المستنجد بالله ، سلمت اليه البصرة بحربها وخراجها ، فاقام بها ثلاثا وعشرين سنة ،

أيدي أسرة جديدة حاكمة من أهل الاحساء هم العيونية من عبدالقيس . انظر حـ ٤٥/٣١٩/ دار الشعب القاهرة (بدون تاريخ) .

٦٧ ـ الماشوش :

بدعة ابتدعها القرامطة في البحرن وجعلوها دينا ، وهو أن يجمع الرجال والنساء في ليلة العاشر من محرم ، وأول ليلة من برج الحمل المسمى النيروز ، ويشعلون الشمع ويرقصون ويختلطون ، ثم يطفئون الشمع ، ويقبض كل منهم يد امرأة من الجمع ويواقعها سواء أكانت من محارمه أم أجنبية ، فحين ملك عبدالله بن على العيوني البحرين وصارت تلك الليلة ركب أبو شكر المبارك بن الحسن بن أبي مقرب العيوني ومعه غلمانه وهجموا على جمع الفساد فضربوهم وسلبوهم ، وأماتوا بدعتهم من البحرين فما بقيت تعرف . انظر شرح الديوان : ٥٥١ .

٦٨ ـ الديوان :٥٥١ .

٦٩ ـ انظر : ابو عبيد البكري : معجم ما استعجم : ٧٩/١ مطبعة لجنة التاليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٤٥ .

٧٠ ـ تحفة المستفيد :٥٦ .

٧١ ـ انظر : معجم ما استعجم : ٨١/١ .

٧٢ ـ انظر : معجم ما استعجم : ٨١/١ .

٧٣ ـ انظر : جمهرة أنساب العرب : ١٩٧ ، ٢٩٥ ، وانظر : ابن عبدربه : العقد الفريد : ٣٥٧/٣ : مطبعة التاليف والترجمة والنشر : ١٩٥٢ م .

٧٤ ـ The Encyelopedia of Islam Vol 1 : 74, Leideu Brill 1960

٧٥ ـ ابن منظور : لسان العرب : جـ٣/٢٧٣ الدار المصرية للتاليف والترجمة (بدون تاريخ) .

٧٦ ـ معجم ما استعجم : ٨١/١ وانظر : الجمهرة : ٢٩٩ .

٧٧ ـ جمهرة أنساب العرب : ٢٩٥ .

٧٨ ـ معجم ما استعجم : ٨٤/١ .

٧٩ ـ دائرة المعارف الاسلامية : ٧٣/١ ـ ٧٤ .

٨٠ ـ الديوان : ٤٥ والعيص / الشجر الكثير الملتف .

٨١ ـ المصدر نفسه : ٢٩/٢٨ .

٨٢ ـ بنو عامر : هم بنو عامر بن الحارث بن أنمار بن وديعة بن لكيز بن أفص بن عبدالقيس (انظر : الجمهرة ٢٩٥) .

٨٣ ـ ابن افصى: كناية عن نفسه ، وإفصي هو ابن عبدالقيس: انظر: الجمهرة: ٢٩٥ ورباب : أحياء ضبة لأنهم أدخلوا أيديهم في رب وتعاقدوا (القاموس: ٧١/١).

٨٤ ـ الديوان : ٦٦٢ .

٨٥ ـ الديوان : ٤٦١ .
٨٦ ـ المصدر نفسه : ٤٥٦ .
٨٧ ـ الخط : مرفأ للسفن بالبحرين واليها تنسب الرماح الخطية .
٨٨ ـ لكيزية : نسبة الى لكيز بن إفصى بن عبدالقيس (الجمهرة : ٢٩٥) .
٨٩ ـ عوف : أحد بطون قبيلة عامر (الجمهرة : ٢٨٠) .
٩٠ ـ الحارثيين : نسبة الى الحارث بن أنمار بن وديعة بن لكيز ، وكان هذا البطن أشهر بطون أنمار : أنظر : جمهرة أنساب العرب : ٢٩٥ .
٩١ ـ مالك : أحد بطون قبيلة عامر (الجمهرة : ٢٨١) .
٩٢ ـ الديوان : ٤٢ ـ ٤٣ .
٩٣ ـ انظر المصدر نفسه : ٣٦٧ ، ٤٦٢ ، ٥٦٦ .
٩٤ ـ الديوان : ٥٠٤ .
٩٥ ـ دليل الخليج : ٨٢٢/٢ .
٩٦ ـ انظر : مخطوطة برلين المشروحة : تسلسل ١٩٨ ، ومخطوطة برنستون المشروحة : تسلسل ٤٤ وانظر : Jas. Page 16 – 17 ، وانظر تحفة المستفيد ٢٥٧ ـ ٢٥٨ وانظر : دائرة المعارف الاسلامية : ٣١٩/٤٥ .
٩٧ ـ انظر : مخطوطة برلين المشروحة : تسلسل ١٩٨ ، وانظر دائرة المعارف الاسلامية ٣١٩/٤٥ .
٩٨ ـ ديوان ابن المقرب : المطبعة الهندية : ٤٤٤ ، مطبعة دت برساد ببومبي : ١٣١١هـ . وانظر : دائرة المعارف الاسلامية : ٣١٩/٤٥ .
٩٩ ـ انظر : مخطوطة برلين المشروحة تسلسل ١٩٨ : شرح قصيدته الميمية .
١٠٠ ـ انظر : التحفة النبهانية : ٩٥ .
١٠١ ـ انظر : Jas. Page 16 – 17 ، وانظر تحفة المستفيد ، ٩٨ وما بعدها النسخة الهندية : ٤٤٤ وما بعدها .
١٠٢ ـ انظر : النسخة الهندية ، ٤٤٤ ، وانظر : الديوان : ٥٣٣ .
١٠٣ ـ الديوان ٥٣٤ .
١٠٤ ـ انظرا : Jas. Page 16 – 17 .
١٠٥ ـ انظر المرجع السابق نفسه وانظر مخطوطة مجهولة المؤلف بدار الكتب المصرية تسلسل ٦٣٧ تاريخ .
١٠٦ ـ انظر تحفة المستفيد : ٩٨ وما بعدها .
١٠٧ ـ انظر : مخطوطة برلين المشروحة ، وقد ورد فيها نص رسالته الى الخلافة العباسية كاملة وتقع في اثنتى عشرة صفحة .
١٠٨ ـ Jas. Page 16 – 17 .
١٠٩ ـ انظر : تحفة المستفيد : ٩٨ وما بعدها ، وانظر : التحفة النبهانية : ٩٦ ، وانظر الديوان : ٥٣٣ . وانظر : Jas. Page 16 – 17 وانظر : نسخة برنستون المشروحة : تسلسل ٤٤ (شرح الميمية) .

١١٠ ـ الديوان : ٥٣٤ واليتم : الابطاء (القاموس : ١٩٣/٤) .
١١١ ـ انظر : ابن المقرب حياته وشعره : ٤٢ .
١١٢ ـ التحفة النبهانية : ٩٥ ، وانظر : نسخة برنستون المشروحة تسلسل ٤٤ (شرح الميمية) .
١١٣ ـ الديوان ٥٣٨ ـ ٥٣٩ .
١١٤ ـ عتيك : قبيلة تنسب الى عتيك بن الازد بن عمران بن عمرو مزيقاء الكهلاني القحطاني (الجمهرة : ٣٤٨) حدان : قبيلة تنسب الى حدان بن شمس بن عمرو بن غنم بن نصر بن الازد ، معجم قبائل العرب ـ لعمر رضا كحالة : ط ١/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠ المكتبة الهاشمية بدمشق ١٩٤٩م .
١١٥ ـ الديوان : ٥٩٠ .
١١٦ ـ انظر تحفة المستفيد : ١٠١ وانظر : التحفة النبهانية : ٩٦ ، وانظر شرح الديوان/ ٥٣٣ .
١١٧ ـ الديوان : ٥٣٢ .
١١٨ ـ نفسه ٥٣٣ .
١١٩ ـ نفسه ٥٣٧ وناقة خيفانة : سريعة والظليم : ذكر النعام والنقيذ : فرس انقذته من العدو .
١٢٠ ـ والشرسكية : لعلها الشركمية ، الديوان : ٥٣٨ .
١٢١ ـ الديوان : ٤٦٩ .
١٢٢ ـ المصدر نفسه : ٤٧٠ يذبل : جبل مشهور بنجد ، ويلملم : جبل على مرحلتين من مكة (القاموس : ١٧٧/٤) .
١٢٣ ـ الديوان : ٥٤٦ .
١٢٤ ـ المصدر نفسه ٥٣٨ .
* ـ جاء في هامش الديوان ص ٥٣٨ أن ملكا من ملوك العجم كان ببلاد قارون (ولعلها حوض نهر قارون ببلاد فارس) فخرج يريد الاحساء في جيش عظيم ، وكان اميرها حينئذ عبدالله بن على العيونى الذي استطاع ان يضللهم في الصحراء بمساعدة الادلاء من البدو ، ما بين البحرين وعمان ، وافسد بالتالى خططهم ، وأهدافهم .
١٢٥ ـ عمران محمد العمران : ابن مقرب حياته وشعره : ٤٤ .
١٢٦ ـ التحفة النبهانية : ٩٩ .
١٢٧ ـ أبوسنان هو محمد بن الفضل بن عبدالله العيونى .
١٢٨ ـ أحمد هو أبو الحسين بن محمد بن الفضل بن عبدالله العيونى .
١٢٩ ـ نزوى : النزوة : جبل بعمان وهو قصبة الخوارج في عمان (القاموس الفيروزابادى ٣٩٥/٤) .
١٣٠ ـ الديوان : ٧٨ ـ ٧٩ .
١٣١ ـ تحفة المستفيد : ١٠٤ .

١٣٢ ـ الديوان : ٥١ ـ حد ناعب : حى من العرب .
١٣٣ ـ الديوان : ٢٠٧ .
١٣٤ ـ الديوان : ٢٠٨ .
١٣٥ ـ الديوان : ٣١٠ .
١٣٦ ـ الديوان : ٣٥٣ ـ ٣٥٤ ، والشازب : الضامر ، والمراسل : الابل السهلة السير . والدجانى : اسم ماء فى الجانب الغربي من الدهناء ، والأين : التعب والنصب ، والشوى : اليدان والرجلان والأطراف والخامعات : الذئاب او الضباع ، والعسال : الذئب ، والنحام : البخيل .
١٣٧ ـ الديوان : ٣٥٥ .
١٣٨ ـ نفسه : ٣٥٥ .
١٣٩ ـ نفسه : ٣٥٧ ، وانسل وتسلل : انطلق فى استخفاء .
١٤٠ ـ الديوان : ٦٢١ وخفان : ماسده .
١٤١ ـ الديوان ٦٢١ ـ ٦٢٢ .
١٤٢ ـ ينظر : الديوان ٥٤٧ ـ ٥٤٨ .
١٤٣ ـ نفسه : ٥٤٧ ودرم : أسم رجل قتل فلم يدرك بثاره فصار مثلا « أودى درم » اللسان : درم .
١٤٤ ـ تستر : أعظم مدينة بخوزستان ، وهى على مرتفع من الارض ، وتستر تعريب ششتر (نقلا عن الديوان : ٢٢٣) .
١٤٥ ـ نفسه : ٢٢٣ والنبيت : أبو حى باليمن ، اسمه عمرو بن مالك (القاموس : ١٥٨/١) وقيذار بن اسماعيل : ابو العرب (القاموس : ١١٥/٢) .
١٤٦ ـ الديوان : ٥٩٤ .
١٤٧) ابن مقرب ـ حياته وشعره : ٤٧ .
١٤٨ ـ الديوان : ١١٠ .
١٤٩ ـ د . شوقي ضيف : سجل شعري تاريخي فريد : مقالة بمجلة مجمع اللغة العربية : عدد ٣٨ ، ١٩٧٦ .
١٥٠ ـ د . شوقي ضيف : سجل شعري تاريخي فريد : مقالة بمجلة مجمع اللغة العربية : عدد ٣٨ .
١٥١ ـ الديوان ٥٤١ .
١٥٢ ـ القصيدة ذاتها : ٥٤٢ .
١٥٣ ـ القصيدة ذاتها : ٥٤٤ .
١٥٤ ـ السيب : نهر بالبصرة ، وفي قرى كثيرة (مراصد الاطلاع : ج ٧٦٣/٢) . تحقيق على البجاوي : دار إحياء الكتب العربية : ١٩٥٤م .
١٥٥ ـ الديوان: ١١١ ـ ١١٢ ـ ١١٣.
١٥٦ ـ تحفة المستفيد: ١٠٨ ـ ١٠٩ وانظر : مخطوطة مجهولة المؤلف بدار الكتب المصرية تسلسل: ٦٣٧ تاريخ.

١٥٧ ـ الديوان : ١٠٥ ـ ١٠٦ .
١٥٨ ـ المصدر نفسه : ٨٩ .
١٥٩ ـ قيس (كيش) وهو تعجيم قيس ، جزيرة في وسط البحر تعد من أعمال فارس ، لأن أهلها فرس ، وتعد من أعمال عمان (معجم البلدان : ٣٠٦/٧) وجاء في دائرة المعارف الاسلامية أن قيس جزيرة صغيرة في بحر عمان ، وأن أسرة من قبيلة القيس استطاعت في زمن النبي محمد (ﷺ) أن تقيم لها دولة فيها . وظهرت أهمية هذه الجزيرة في نهاية العصر الوسيط عندما برز امير من جنوب الجزيرة العربية ، واحتلها ، وبنى اسطولا ، وأخذ ينشر نفوذه ، وبدأت الجزيرة تتمتع بازدهار متواصل ، أصبحت مركزا للتجارة الهندية الفارسية الصينية . وقد خلط ابن بطوطه في تحفته (ص ٣٤٤) بين : سيراف كمدينة تقع على الساحل الشمالي القريب من الجزيرة ، وبين جزيرة قيس .

(Incyclopeedia of Islam· Leyden· London 1927· vol 74 : 649)

١٦٠ ـ سترة : هي شبه جزيرة سترة بالبحرين الحالية ، تكتسب أهميتها الآن من وجود أكبر مصفاة لتكرير النفط في المنطقة بها .
١٦١ ـ انظر : الديوان : ٥٥٠ .
١٦٢ ـ شامة والحاشك : لعله يقصد بهما قوم الملك أبي كرزاز ، والرقم : الداهية (القاموس : ٤/ ١٢١) .
١٦٣ ـ الديوان : ٥٥٠ .
١٦٤ ـ المصدر السابق نفسه : ٥٩٤ ـ ٥٩٥ .
١٦٥ ـ ابن مقرب حياته وشعره : ٤٧ .
١٦٦ ـ انظر الديوان : ٦٣١ وقيس وغيلان : خصومهم لأنهم اعز بادية بارضهم .
١٦٧ ـ المصدر نفسه : ٣٦٩ .
١٦٨ ـ انظر المصدر نفسه : ٦٣١ .

ابو علي ابراهيم بن عبدالله بن عزيز بن ابراهيم بن أبي جروان ، وعزيزا أحد بني بيرق ، وهو عمرو بن عبدالله بن مالك بن عامر . وكانت صلة ابن المقرب به طيبة ، لما بينهما من خلطة ولحمة نسب ، وقد مدحه بقصيدتين يفهم منهما أنه من قبيلة عبدالقيس ومن زعماء الاحساء (الديوان : ١٦٧ .

ساد الورى طفلا وبرز يافعا
لم يثغر وبنى المكارم امردا
أباؤه من عبدقيس خيرها
حسبا واكرمها وأوسعها ندى

(الديوان ١٦٧)

ويقول من قصيدة أخرى :

فتى حل من عليا لكيز وعامر
بأعلى محل من ذرى وقلال
أخ وابن عم حين أدعو ووالد
شقيق وخل لا يخون وكالى
كفى ساكن البحرين كل عظيمة
وناء بأعباء تكون ثقال

الديوان : ٣٧٧ ـ ٣٧٨ .

١٦٩ ـ الديوان ٦٣٢ ـ ٦٣٣ .
١٧٠ ـ المصدر نفسه : ٦٣٤ .
١٧١ ـ المصدر نفسه : ٤٦٤ .
١٧٢ ـ الكثيب : طرف الاحساء الجنوبى .
١٧٣ ـ والعيون : طرفها الشمالى . والمحاديث من ارض العيون .
١٧٤ ـ وحلوان : مكان بين الاحساء والقطيف .
١٧٥ ـ والخط : هى القطيف .
١٧٦ ـ وصفواء : طرف القطيف الشمالى .
١٧٧ ـ والظهران : طرف القطيف الجنوبى .
١٧٨ ـ ١٧٩ ـ المروزان وكرزكان : قريتان فى جزيرة اوال (الديوان : ٦٣٨/٦٣٩) .
١٨٠ ـ نفسه : ٦٣٨ ـ ٦٣٩ .
١٨١ ـ نفسه : ٦٤٠ ـ ٦٤١ .
١٨٢ ـ الديوان : ٣٦٩ .
١٨٣ ـ المصدر نفسه : (٣٧٠) .
١٨٤ ـ المصدر نفسه : ٣٨٥ ـ ٣٨٦ .
١٨٥ ـ الديوان ٣٨٤ ـ ٣٨٥ .
١٨٦ ـ نفسه : ٣٨٥ .
١٨٧ ـ القرحا : سيف القطيف (الديوان : ٣٨٧ ـ .
١٨٨ ـ نفسه : ٣٨٧ .
١٨٩ ـ نفسه : ٣٨٨ ـ ٣٨٩ .
١٩٠ ـ نفسه : ١٣٤ .
١٩١ ـ نفسه : ١٤ .
١٩٢ ـ الديوان : ٦١٠ .
١٩٣ ـ نفسه : ٤٥٦ .
١٩٤ ـ نفسه : ٤٥٦ ـ ٤٥٧ .
١٩٥ ـ نفسه : ٦١٠ ـ ٦١١ .
١٩٦ ـ نفسه : ٦١١ .

١٩٧ ـ الديوان : ٦١٥ ـ ٦١٦ .
١٩٨ ـ نفسه : ٦١٦ .
١٩٩ ـ نفسه : ٢٥٥ .
٢٠٠ ـ نفسه : ٢٥٥ .
٢٠١ ـ نفسه : ٢٥٧ .
٢٠٢ ـ الديوان : ١٦٩ .
٢٠٣ ـ نفسه : ٢٤٢ .
٢٠٤ ـ انظر : تحفة المستفيد : ١١٨ وانظر : ابن مقرب حياته وشعره : ٤٨ .
٢٠٥ ـ تاريخ ابن خلدون : ٤ : ١٩٦ .
٢٠٦ ـ انظر : التحفة النبهانية ٩٩ ـ ١٠٠ .
٢٠٧ ـ البحرين من امارات الخليج العربي : ٢٦ .
٢٠٨ ـ ابن مقرب حياته وشعره : ٤٨ .
٢٠٩ ـ انظر : عبدالحميد غنيم : مشكلات الحدود السياسية في الساحل الغربي للخليج العربي : ٣ ـ ٤ رسالة مخطوطة بمكتبة آداب القاهرة ، ١٩٧٥ .
٢١٠ ـ يوسف خليف : الشعراء الصعاليك : ١٢٥ ـ ١٢٦ ، دار المعارف بالقاهرة ، ١٩٥٩ .
٢١١ ـ تحفة المستفيد : من المقدمة لحمد الجاسر .
٢١٢ ـ البحرين من امارات الخليج العربي : ٢٠ .
٢١٣ ـ تحفة المستفيد : من المقدمة لحمد الجاسر .
٢١٤ ـ تحفة المستفيد : ١٩ .
٢١٥ ـ مشكلات الحدود السياسية : ٥ .

٢١٦ ـ ياقوت الحموي : معجم البلدان : ٢/٧ ، وانظر : البكري : معجم ماستعجم وانظر ابن خلدون : العبر وديوان المبتدا والخبر : ٤/١٩٧ .
٢١٧ ـ انظر : المقدسي : أحسن التقاسيم : ٥٩ : مطبعة بريل : ليدن ١٩٠٩م ومعجم البلدان : ١/٣٤٦ ، والعبر : ٤/١٩٧ .
٢١٨ ـ معجم البلدان : ٢/٧٢ .
٢١٩ ـ المصدر السابق نفسه : ٢/٧٢ .
٢٢٠ ـ المصدر السابق نفسه ٨/٤٤٦ .
٢٢١ ـ الهمداني : صفة جزيرة العرب : ١٣٦ ، مطبعة السعادة : القاهرة ١٩٥٣م .
٢٢٢ ـ القلقشندي : صبح الأعشى : جـ ١٣/٥٥ : المطبعة الاميرية بالقاهرة ١٩١٤م .
٢٢٣ ـ معجم البلدان : ٢/٧٣ .

٢٢٤ ـ ابن خرداذبه : المسالك والممالك : ١٥٢ مطبعة بريل : ليدن ١٨٨٩م .
٢٢٥ ـ صفة جزيرة العرب : ١٧٨ .

٢٢٦ ـ عمر رضا كحاله : جغرافية شبه جزيرة العرب : ٢٦١ : المطبعة الهاشمية دمشق ١٩٤٤ .
٢٢٧ ـ ابو الفداء : تقويم البلدان : ٩٩ : دار الطباعة السلطانية بباريس ١٨٤٠م .
٢٢٨ ـ تحفة المستفيد :٣ .
٢٢٩ ـ صفة جزيرة العرب : ٣٦ ويقول ابن سيده والزجاج والأزهري كل نهر عظيم لا ينقطع ماؤه فهو بحر ـ لسان العرب : (مادة : بحر) .
٢٣٠ ـ امين الريحاني : ملوك العرب : ٢٢٣ : دار صادر ، ريحان : بيروت ١٩٥١م .
٢٣١ ـ ابن بطوطة : تحفة النظار في غرائب الأمصار : ١/١٧٧ : مطبعة الاستقامة : ١٩٧٦م . وجاء في لسان العرب أن سيبويه يقول بحراني في النسب الى البحرين التي هي مدينة . (انظر اللسان : مادة بحر) .
٢٣٢ ـ العبر : ٤/١٩٧ . معجم البلدان : ١/١٣٧ .
٢٣٣ ـ معجم البلدان : ١/١٣٧ .
٢٣٤ ـ «واحساء القرامطة غير الاحساء الموجودة الان . وانما موقعها عين الجوهرية ، والمكان المعروف بالبطالية ، وأما الاحساء الموجودة الآن فهي من بناء الأتراك بعهد الوالي فروخ باشا» .
(ديوان ابن المقرب : المكتب الاسلامي بدمشق : الطبعة الثانية ١٩٦٨ ـ من المقدمة من رسالة بعث بها الشيخ يوسف بن راشد المبارك للمكتب بدمشق مصححا بعض المعلومات الواردة في الطبعة الاولى) .
٢٣٥ ـ عبد الفتاح الحلو : شعراء هجر : حـ من المقدمة : مطبعة الفجالة الجديدة بالقاهرة ١٩٥٩م .
٢٣٦ ـ دائرة المعارف الاسلامية : ٤٥/٣١٩ .
٢٣٧ ـ معجم البلدان : ١/١٣٦ ـ ١٣٧ .

٢٣٨ ـ محمد متولي : حوض الخليج العربي : ٦٣ : مكتبة الانجلو المصرية ١٩٧٠م .
٢٣٩ ـ حافظ وهبة : جزيرة العرب : ٦٨ : لجنة التاليف والترجمة والنشر ١٩٥٦م .
٢٤٠ ـ انظر : لوريمر : دليل الخليج (القسم الجغرافي) : جـ ٢/٨٢٠ ترجم وطبع على نفقة الشيخ خليفة بن حمد ال ثاني أمير دولة قطر (بدون تاريخ) .
٢٤١ ـ المرجع السابق نفسه : ٢/٨٢٠ .
٢٤٢ ـ جزيرة العرب : ٦٩ .

٢٤٣ ـ تحفة النظار : ١/١٧٧ .
٢٤٤ ـ حوض الخليج العربي : ٦٣ .
٢٤٥ ـ انظر : جزيرة العرب : ٦٩ .
٢٤٦ ـ المرجع نفسه :٧٢ .
٢٤٧ ـ تحفة النظار : ١/١٧٧ وانظر : العبر : ٤/١٩٧ .
٢٤٨ ـ انظر : مشكلات الحدود السياسية في الساحل الغربي للخليج العربي : ٨

كاظمة
لأرشفة التراث الديني

الوثيقة

دورية تاريخية محكمة

يصدرها
مركز الوثائق التاريخية
بدولة البحرين

العدد الرابع والعشرون ـ السنة الثانية عشرة
رجب ١٤١٤هـ ـ يناير ١٩٩٤م

جـدول
يوضح اهم البضائع المصدرة والمستوردة فى عمان خلال عهد احمد بن سعيد

البضائع المصدرة	البضاع المستوردة
التمر	الأرز
المانجو	التبغ
العنب	القهوة
الموز	السكر
الزيتون	القماش
الليمون	لعب الاطفال
الاسماك	ادوات المائدة
العقاقير	العقاقير
اللؤلؤ	النحاس
النحاس	
القهوة	ماء الورد
اللبان	الحرير
الفضة	القطن
الصمغ	الكبريت
ريش النعام	العفص الجوزى
الجلود	الصمغ
العسل	الآلات الوترية
الماشية	اقلام القصب
التوابل	الخيول
الاجبان	أعواد الصندل
العدس	
الشعير	العاج
الدهون الحيوانية	تراب الذهب
الجير	الزنجبيل
الفلفل	

والسكر الذي كانوا يجلبونه من (باتافيا) ثم يمدون بالفائض منه أغلب مناطق الخليج العربي وجزءا من الشرق الأدنى وذلك لأن ما يصل عمان منه يمثل نحو نصف مجمل التجـارة بـين الهنـد والخليـج العربي .(٤٢)

٣ ـ العلاقات التجارية :

شهدت فترة النصف الثاني من القرن الثامن عشر تطورا كبيرا من العلاقات التجارية العمانية وخاصة مع كل من العراق واليمن والهند وفرنسا وبريطانيا اذ يعطينا العدد الكبير من السفن التى تمر في ميناء مسقط الصورة الصادقة عن تشعب علاقات عمان التجارية وكثرتها ابان هـذه الفترة،، حيث تعـاملت مع « سورات » و « بومباى » و « جوا » على امتداد ساحل مـالابار ومـع مخاوجدة فى البحر الأحمر كما كانت تؤمها السفن من فارس والبصرة ، ومن نهـر السند ومنـاطق كثيرة أخرى ،(٤٣) ويمكن تقسيم علاقات عمان التجارية الى :

أ ـ العلاقات التجارية المحلية :

كانت تتركز مع العراق فكان أسطول القهوة الذي يرسله السلطان العمانى سنويا يعد من الأحداث التجـارية الهـامة فى البصرة(٤٤) وما يصل من العـراق لعمان من الواردات كان يشمل التمور والنحاس والعفص الجوزى والصمغ .(٤٥)

أما العلاقات التجارية مع فارس ولغاية عام ١٧٧٣ فكانت هناك حركة تجارية واسعة بين مينائى بندر عباس

وأبو شـــهر وميناء مسقط ، حيث يصل منهما لعمان النحاس العقاقير وماء الورد والفاكهة المجففة والحرير والكبريت والقطن .[٤٦] ولعمان أيضا كانت علاقات تجارية مهمة مع مخا في اليمن ، اذ كـانوا ينقلـون منهـا (٢٠,٠٠٠) بـالة من البن الى البصرة ،[٤٧] وكانت هناك علاقات تجارية مع جزيرة العرب حيث يتم استـيراد الصمـغ وريش النعـام والجلود وعسل النحل والماشية ، ويصدر لها من عمان القهوة والسكر والفلفل .[٤٨]

ب - العلاقات التجارية الدولية :

اضافة الى العلاقات التجارية المحلية ، كان لعمان علاقات تجارية دولية مهمة ، وكانت فى أول الأمر مع فرنسا حيث أدرك السلطان العماني أحمد بن سعيد منذ توليه الحكم فى عمان عام ١٧٤٩م أهمية الصداقة الفرنسية لعمان فدخل فى علاقات تجارية واسعة مع لامارتنيك ، حاكم جزيرة موريشيوس (جزيرة فرنسا) عام ١٧٦٠ وتبادل معه الكثير من الهـدايـا ،[٤٩] واحتفظ بعـلاقـات ومصالح تجارية مع وكيل الشركة الفرنسية ببغداد ، ولقد استمرت هذه العلاقات التجارية طيلة فترة حكم أحمد بن سعيد .[٥٠]

وتوضح لنا الرسالة التى بعث بها الكونت ماكنمارا قائد قاعدة بحر الهند الفرنسية الى وزير البحرية الفرنسي فى : ١٣/ تموز/ ١٧٧٩ مدى تطور العلاقة بين الطرفين ، اذ يخبره فيها عن تنفيذه للتعليمات الصادرة بتقديم الهدايا لأحمد بن سعيد ويذكر بأنه استقبلها وأكد رعـايته للمصـالح الفرنسية بشكل خاص .[٥١] ولقد كان اهتمام الفرنسيين بالعلاقة التجارية مع عمان نابعا من كون عمان تمثل لهم حليفا مقتدرا وفعالا من الناحية التجارية وكونها المحور الرئيسي لمنطقة الخليج العربي .[٥٢] وعليه ، كانت عمان تستورد من جزيرة فرنسا (موريشيوس) السكر وتصدر لها الأسماك والتمور والقهوة .

أما الدولة الأوروبية الأخرى ذات العلاقة التجارية بعمان خلال فترة البحث فهى بريطانيا ، اذ استطاعت شركة الهند الشرقية الانجليزية أن تقيم علاقة ودية مع السلطان العماني على الرغم من عدم وجود ممثل رسمى لها في عمان ، حيث رفض السلطان العماني أن يمنح الانجليز رخصة انشاء وكالة لهم فى مسقط لتخوفه من المطامع الأوروبية فى بلاده . ولقد استمرت علاقة الشركة الودية مع عمان ، وقد قـرر مجلس ادارتها بلندن ، أن يكون ميناء مسقط هو المينـاء الـذي تلقى بـه السفن الانجليزية حمولتها ابان استمرار عمليات القرصنة الأمر الذي دفع بالسلطان العماني ان يوافق على أن يكون للشركة ممثل في عمان وذلك عام ١٧٧٢ .[٥٣]

لم تكن بريطانيا وفرنسا البلدان الأوروبيان الوحيدان اللذان كان لهما علاقات تجارية مع عمان ، بل كان لهولندا علاقات تجارية أيضا مع عمان خلال هذه الفترة ، ففى شهر تشرين الأول من عام ١٧٥٦م وصلت سفينتان هولنديتان تحملان بضاعة ثمينة الى عمان وهما قادمتان من باتافيا ، وقد قدم القائد الهولندى هدية من حاكم بلاده الى أحمد بن سعيد مع رسالة يطلب فيها السماح باقامة مقر تجاري ورفع العلم الهولندى فوقه ، وقد سمح السلطان العماني للهولنديين بأن ينزلوا حمولتهم ويؤجروا بيتا ملائما وأن يتركوا أشخاصا معتمدين لتسيير شؤونهم التجارية .

وأخيرا ، ونحن بصدد الحديث عن العلاقات التجارية العمانية الدولية ، لابد من التطرق للعلاقات التجارية العمانية مع الهند ، فبحكم الموقع الجغرافي كانت عمان حلقة اتصال بين الوطن العربي والهند لاسيما مع الامارات الاسلامية هناك فلقد عاصر أحمد بن سعيد حاكم حيدر آباد المدعو نظام الملك وكانت السفن العمانية تتردد على الموانىء الهندية فتعود بالأرز اللازم لحاجة أبناء الخليج العربي بأسرهم .(٥٤) كما كان هناك اتصال تجارى بين مقاطعة ميسور ومسقط فكانت حوالي (خمس سفن) تحمل علم ميسور تزور العاصمة العمانية كل عام ،(٥٥) وقد استدعت هذه الحركة التجارية النشيطة تطهير ساحل ملابار من القراصنة ـ كما أسلفنا ـ وبذلك فقد سبق العرب الأوروبيين الى تلك السياسة التى استهدفت تأمين الملاحة التجارية فى المحيط الهندي .

الخلاصة والاستنتاجات

من خلال ما تقدم نخلص للقول بأن التجارة ابان عهد أحمد بن سعيد قد ازدهرت كثيرا وذلك للأسباب التالية :

١ ـ موقع عمان الذي يربط بين الشرق والغرب والواقع على طريق الهند التي تعد بضاعتها ولاسيما التوابل والعطور من أنفس الواردات التي كانت تصل أوروبا يومذاك .

٢ ـ تولي أحمد بن سعيد الحكم وطرده للأجنبي وتوحيد البلاد وعودة الهدوء والاستقرار اليها ، الأمر الذي أتاح المجال أمام العمانيين المعروفين بميلهم لركوب البحر ومزاولة التجارة في أن يلعبوا دورا مهما في ازدهار التجارة في عهده .

٣ ـ اعتماد الأسطول التجاري على السفن المحلية حيث لم تدخل السفن البخارية ملاحة المنطقة بعد .

د. فاضل محمد الحسيني
مدرس التاريخ الحديث ـ جامعة
الملك محمد الخامس ـ المغرب

المراجع

(١) قاسم ، جمال زكريا : الخليج العربي ، دراسة لتاريخ الامارات العربية في عصر التوسع الأوروبي الأول ١٥٥٧م ـ ١٨٤٠م القاهرة ، ١٩٨٥م ، ص : ١٤٦ .

(٢) محمد ، سعاد ماهر ، الاستحكامات الحربية بسلطنة عمان ، مجلة الدارة ، العدد الثالث ، السنة الرابعة ، الرياض ، ١٩٨٢ ، ص : ١٩٢ .

(٣) حوراني ، جورج فضلو ، العرب والملاحة في المحيط الهندي ، ترجمة يعقوب بكر مراجعة يحي الخشاب ، القاهرة ، ١٩٥٨ ، ص : ٢٣٧ .

(٤) لاندن ، روبرت جيران ، عمان منذ ١٨٥٧ مسيرا ومصيرا ، ترجمة محمد أمين عبدالله سلطنة عمان ، ١٩٧٠ ، ص : ٥٥ .

(٥) المعمري ، احمد حمود ، عمان وشرق افريقيا ، ترجمة محمد أمين عبدالله وزارة التراث القومي والثقافة ، عمان ، ١٩٨٠ ، ص : ١١ .

(٦) أمين ، عبدالأمير محمد ، القوى البحرية في الخليج العربي في القرن الثامن عشر ، بغداد ، ١٩٦٦ ، ص : ٢٢ .

(٧) Par sons, Abraham, Travel in Asia and Africa, London - 1808, P, 207.

(٨) لاندن ، المصدر السابق ، ص : ٥٧ .

(٩) هولي ، رونالد ، عمان ونهضتها ، الحديثة ، اعداد وترجمة مؤسسة ستايس ، لندن بدون تاريخ ، ص : ١٦ .

(١٠) Thomas, Bertram, Arab rule under the Al-Bu Said dynasty of Oman,1741-1937, London, 1938 - p: 15.

(١١) لاندن ، المصدر السابق ، ص : ٥٧ .

(١٢) عامر ، عبدالمنعم عمان في أمجادها البحرية ، وزارة التراث القومي والثقافة سلطنة عمان ، ١٩٨٠ ، ص : ٩٦ .

(١٣) نورس ، علاء الدين ، السياسة الايرانية في الخليج العربي ابان عهد كريم خان ١٧٥٧ ـ ١٧٧٩ بغداد ١٩٨١ ، ص : ٥٦ .

(١٤) لاندن ، المصدر السابق ، ص ٥٧ .

(١٥) هولي ، المصدر السابق ، ص : ١٨٦ .

(١٦) Thomas,op. cit, p:15.

(١٧) Report on the commerce of Arabia and Persia by Samuel-Manesty and Harvard Jones, 15 August, 1790

نقلا عن نورس ، المصدر السابق ، ص ٥٦

(١٨) Wellst ed, J.R., Travels in Arabia, London, N.D. Vol 1-P : 10

(١٩) Selections from the Records of Bombay, Government, New series, No - XXiV, Bombay, 1856, p: 631.

والقامة تساوى ٦ أقدام .

(٢٠) محمد ، المصدر السابق ، ص ١٩٠ .

(٢١) لوريمر جون ، غوردن ، دليل الخليج ، القسم التاريخى ، ترجمة مكتب الترجمة بديوان حاكم قطر بيروت ، ١٩٧٠ ، ص : ٦٥٣ .

(٢٢) قاسم ، جمال زكريا ، دراسة لتاريخ الامارات العربية ، ١٨٤٠ ـ ١٩١٤ ، القاهرة ١٩٧٤ ، ص ٣ .

(٢٣) Mansur, Shaikh (Vincenzo mannizi), History of Seyd, Said, Sultan of M uscat, London, 1819, p : 23

(٢٤) Coupland, R. East Africa and Its in vaders, London, 1856 - p : 85

(٢٥) Badger, George percy" History of the Imam and Seyyids of Oman, By Salilibn - Razik, A.D. 661-1856- Translated from the original Arabic and Edited with notes - Appendices and Indroduction, continuing the history down to 1870, London 1871- P:, London 1871- P: XIV ii–

(٢٦) لاندن ، المصدر السابق ، ص : ٥٦ .

(٢٧) عمان وتاريخها البحرى ، مجلة تصدرها وزارة الاعلام والثقافة العمانية ، ١٩٧٩ ، عمان ، ص ٧٤ .

(٢٨) Welle sted, op – cit, p : 10

(٢٩) لوريمر ، المصدر السابق ، القسم التاريخى ، جزء ٢ ، ص : ٦٥٢ .

(٣٠) Letter from Henry Moore to honorable gentlemen, 1.1774 - Factory Records, Persia and the gulf, Vol - 17

(٣١) لوريمر ، المصدر السابق ، القسم التاريخى ، جزء ٢ ، ص : ٦٥٤ .

(٣٢) متولى ، محمد ، حوض الخليج العربي ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص : ٣٣٦ .

(٣٣) Parsons, Abraham, Travel in Asia and Africa London, 1808, P: 209

(٣٤) Neighbur, Carsten, Travel through Arabia And other countries in the East, translated into English By Rebert Heron, Vol - II, London, 1792, P:115

(٣٥) عامر ، المصدر السابق ، ص : ٦٩ ،

(٣٦) متولى ، المصدر السابق ، ص ٣٣٥ .

(٣٧) كيلى ، جون ، / ب / بريطانيا والخليج ١٧٩٠ ـ ١٨٧٠ ، ترجمة محمد امين عبدالله ، الجزء الأول ، سلطنة عمان ، ١٩٦٥ ، ص ٣١ .

(٣٨) لوريمر ، المصدر السابق ، القسم التاريخى ، جزء ٢ ، ص : ٦٥٦ .

(٣٩) هولي ، المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

(٤٠) جيان ، شارل ، وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن افريقيا الشرقية نقله الى اللغة العربية ملخصا يوسف كمال ، القاهرة ١٩٢٧ ، ص ٥١ .

(٤١) العابد ، صالح محمد ، موقف بريطانيا من النشاط الفرنسي فى الخليج العربي ، ١٧٩٨ ، ١٨١ ، بغداد ، ١٩٧٩ ، ص ١٨ .

(٤٢) امين ، عبدالأمير محمد ، المصالح البريطانية فى الخليج العربي ، ١٧٤٧ ، ١٧٧٨ ، ترجمة هاشم كاطع لازم ، مراجعة مكي حبيب المؤمن ، مركز دراسات الخليج العربي ، بغداد ، ١٩٧٧ ، ص ٢١١ .

(٤٣) Parsons, op Cit, p : 207

(٤٤) لوريمر ، المصدر السابق ، القسم التاريخى ، جزء ٢ ، ص : ٦٥٢ .

(٤٥) هولي ، المصدر السابق ، ص ١٨٦ .

(٤٦) امين المصدر السابق ، ص ص : ٢١٠ ـ ٢١١ .

(٤٧) بيدويل ، روبين ، عمان فى صفحات التاريخ ، ترجمة محمد امين عبدالله ، مراجعة عبدالمنعم عامر ، وزارة التراث القومى والثقافة ، سلطنة عمان ، ١٩٨٠ ، ص : ٢٦ .

(٤٨) Letter from Henry Moor to Honorable Gentle men, 1 May, 1774 – F.R, Vol, 17

(٤٩) روت ، رودولف سعيد ، سلطنة عمان خلال حكم السيد سعيد بن سلطان ، ١٧٩١ ـ ١٨٥٦ ، ترجمة عبدالمجيد حسيب القيسى ، مركز دراسات الخليج العربي ، البصرة ، ١٩٨٢ ، ص ١٧٧ .

(٥٠) مايلز ، س ، ب ، الخليج بلدانه قبائله ، ترجمة محمد امين عبدالله ، وزارة التراث القومى والثقافة ، سلطنة عمان ، ١٩٨٢ ، ص : ٢٢٦ .

(٥١) بالو ، ايزابيلا ، عمان وفرنسا ، صفحات من التاريخ ، ترجمة السيد خزعل ، مطابع شركة تيب ، باريس ، بدون تاريخ ، ص : ٦ .

(٥٢) Skeet. Ian, Muscat and Oman, the end of an era, London 1974. P : 40

(٥٣) لوريمر ، المصدر السابق ، القسم التاريخى ، جزء ٢ ، ص : ٢٥٣ .

(٥٤) العقاد ، صلاح ، التيارات السياسية فى الخليج العربي ، القاهرة ، ١٩٧٥ ، ص ٥٢ .

(٥٥) لوريمر ، المصدر السابق ، القسم التاريخي ، الجزء الأول ، ص ص : ٢٥٣ ـ ٢٥٤ .

رحلة مشبوهة من الهند إلى إنجلترا

صورة عن الخليج في أوائ

كيف شوّه الرّحالة الإنجلين

هذا التقرير ليس وصفا لاحد الرحالة كما يدعى مؤلفه الملازم الانجليزي ويليام هايد . وانما هو تقرير اعده احد الضباط الانجليز وهو تقرير يؤكد في كل حرف منه ان هذا الضابط كان جاسوسا وان المهمة التى كان مكلفا بها هي رصد القلاع وجمع اكبر قدر من المعلومات عن موانىء المنطقة والقوى البحرية في الخليج . التقرير لا ياتى بجديد عن تاريخ المنطقة ولكن القيمة التى دفعتنا لنشره هي عرض صورة من التقارير التي كان يكتبها الموظفون الانجليز منذ اكثر من ١٧٠ عاما وكيف فهموا المنطقة من وجهة نظر خاطئة وكيف شوهوا تاريخ الكثير من المدن والقرى وكيف كان ابطال البحر العرب الذين يدافعون عن مياههم قراصنة من وجهة نظرهم . ذلك لأن هذه التقارير لم تكن فقط السبب في هجوم الكثير من القوى الطامعة بعد ذلك على المنطقة وانما كانت للاسف احد المصادر للكتب والمؤلفات التى كتبت عن المنطقة فيما بعد ونقلت الكثير من الاخطاء التى وردت فيها دون محاولة للتحليل او حتى للفهم .

[الوثيقة]

ل القرن التاسع عشر

تاريخ الخليج بأفكارهم المغلوطة؟

بقلم الملازم وليام هايد

غادرت ميناء بومباى يوم السبت ٢٦ اكتوبر ١٨١٦ مودعا المشاهد المألوفة التى تركتها ورائى والتى بقيت اتذكرها طويلا بأحاسيس الحزن والبهجة معا ورغم انى كنت متوجها الى بلادى واهلى تاركا بلدا غريبا الا انى ذكرت عددا كبيرا من الاصدقاء المخلصين الصادقين مما اصابنى بموجة من الحنين الاليم مشوبا بآمال عريضة في المستقبل .

وكانت مغادرتى مفاجئة بصورة لم اكن اتوقعها . وعندما اعددت نفسى مبكرا للسفر الى البصرة بطريق البر واضطررت للتخلص من عدة امتعة شخصية لتخفيض الوزن واقتصرت على اخذ بعض الملابس فقط وقمت بفحص دقيق للاسلحة المخصصة للدفاع عن النفس ظننت بأنى اكملت كافة الترتيبات اللازمة للسفر ولكن ظهر ان بعض الترتيبات يأخذ وقتا اطول مما كنت اتوقعه ويتطلب تذليل صعوبات كثيرة ومضنية وقد دهشت عندما عرفت بأن السفينة سوف تغادر في الساعة العاشرة من نفس اليوم ولما خرجت من خيمتى رأيت السفينة «فضل كريم» بعيدة عن الشاطىء ووجدتنى في موقف حرج جدا اذ شعرت بضرورة اختيار ربان السفينة باهتمام بالغ بدلا من الاهتمام بنوع السفينة وهذا درس يجب ان يتعلمه المسافرون الآخرون جيدا لاننى سبق ان تعرضت لعدة مشاكل ومتاعب

بسبب اختياري هذه السفينة مرات عديدة ، لقد سبق لي ان تلقيت اخطارا بأن موعد السفر سيكون يوم الاثنين القادم وقد فوجئت بتقديم الموعد دون مبرر او سبب مقنع فاندفعت الى اتمام الاجراءات الرسمية المطلوبة بسرعة فائقة . وساعدني صديق حميم لي في الحصول على الشهادات الرسمية من الجهات المختصة مثل شهادة تصفية الحسابات وشهادة الهوية الشخصية الخ .

وركبت زورقا من الزوارق الصغيرة لتوصيلي وتوصيل امتعتي الشخصية للسفينة وهذا نظام يتم تحت اشراف الكابتن «كيس» وهو رجل متعاون ويتمتع بخلق كريم وتتميز هذه الزوارق بمتانتها ومهارة طواقمها وسرعة انجاز مهامها بأمن وامان ويمكن اعتبارها احسن ما يوجد في المنطقة كلها وقد وصلنا الى السفينة بعد حوالى اربع ساعات في البحر ولم تكن الشواطىء مرئية عندما اقتربنا من السفينة . وكما عرفت فيما بعد فإن ربان السفينة لم يكن على علم بما يدور حوله او مستعدا ليرحب بنا على متن السفينة حتى انه لم يكن يعرف سببا لوجودي هناك وتجاهل اشاراتنا له وعلى كل حال عندما ركبت السفينة اخيرا وتعرفت عليه اعتذر لي ودعاني الى كابينته وقدم لي الشراب .

وفي صباح اليوم التالي ٢٧ اكتوبر ١٨١٦م اتيحت لي الفرصة لأرى اوضاع السكن وسلوكيات الطاقم الذي تكون من عدة جنسيات ومدى الانضباط بين أفراده ونظرا لان السفينة كانت سفينة عربية فلن يواجه القارىء في بومباي أو الخليج أية صعوبة في تصور تجهيزاتها واقتصر على القول بان السفن التجارية العربية المستخدمة في الخليج كان يتم تصنيعها وتسييرها طبقا للنظم الانجليزية ويقودها ربان أوروبي بمساعدة شخص أو شخصين وكان هذا يضمن لها استخدام العلم الانجليزي والحماية الانجليزية مع ان صاحب السفينة عربي وعلى الرغم من ان السفينة العربية كانت أقل في امكانياتها من السفن التجارية الغربية المماثلة إلا أن ترتيبات السكن على متنها كانت مريحة اكثر وذات مزايا متنوعة .

السفينة «فضل كريم» سفينة عربية ذات حمولة قدرها ٣٥٠ طنا وعليها ٥٠ مستخدما في شتى المهن و٩٠ مسافراً منهم ٣٠ فارسيا في غاية النشاط والحيوية والباقون من اجناس مختلفة كالعرب والاتراك واليهود والنصارى من حرف ومهن متنوعة فمنهم التجار وزوار كربلاء وتجار الخيل والعساكر والعبيد وكان هؤلاء الناس قد وصلوا الى بومباي من شتى انحاء العالم وكانوا في طريقهم الى أماكن مختلفة أيضا .

لا أريد ان اذكر التفاصيل المملة عن الروتين اليومي واقتصر على ملاحظاتي الدقيقة عن سلوك الانسان

لأن دراسة الانسان في الحقيقة هي دراسة الانسانية جمعاء وقد كان عندي فراغ كاف لاتولى هذه الدراسة المتنوعة الأبعاد . لقد وجدت بعد وقت قصير ان المسئول عن الأثاث والشحن اسمه سيد قادر ومعه اثنان من المعاونين الاتراك ذوي ذكاء وخبرة فوق العادة وكان لديهم معلومات وملاحظات قيمة ومتنوعة وكان واحد منهم يتكلم الفرنسية بطلاقة ويتظاهر في تصرفاته بأنه أوروبي واكتشفت فيما بعد ان كثيراً من الناس يمارسون هذا التظاهر ويتجول بيننا عدد من الناس من هذا النوع بحرية كاملة وهم ذوو لحية وعمامة ويتظاهرون بانهم مسافرون وليسوا مستخدمين في السفينة . ولا يعرف أحد في السفينة حسابات وقياسات خط الطول وعرفت من ربان السفينة بأنه أمر غير ضروري لأن الشواطىء العربية تبرز للعيان وتحدد له المسار دون تعب . وهكذا أمضينا ١٢ يوماً دون مفاجآت تذكر ما عدا رؤية قارب أوقاربين قالوا انهما للقراصنة ولا اعرف سببا لاطلاق هذا الاسم على القاربين وهل كانا للقراصنة فعلاً أم لا ، وحسب توقعات ربان السفينة فقد ظهرت الشواطىء العربية في السابع من نوفمبر ورأينا أمامنا عند طلوع الشمس أحد المعالم المعروفة المسمى «ثغرة الشيطان» على بعد ٦٠ ميلاً من مسقط وهي الميناء المقصود وكان الموقع مضاداً للريح ولم يكن هذا الوضع ملائماً من الناحية الملاحية وأظنه كان السبب لتسمية المكان «ثغرة الشيطان» باعتبارها رمزاً لسوء الطقس ورداءة الرياح والعواصف التي يتبعها الهدوء التام .

إنني مقتنع بأهمية بذل الجهد وكسب القدرات والحملات الاستطلاعية لاحراز أي نجاح في أي مجال ، فالمسافرون احيانا يجدون أنفسهم مضطرين الى البقاء على سفن تجنح في مياه غير آمنة اذ تقع هذه الاماكن خارج نطاق خط سير السفينة . وقد وجدنا انفسنا مضطرين الى البقاء في مياه «ثغرة الشيطان» من ٧ الى ١١ نوفمبر مما اضعف معنوياتنا وشعرت بأنى مثل «السندباد» اتمنى ان تأتى معجزة وتنقذنا من هذا الموقف الحرج . وقد حدثت المعجزة فعلا وتمكنا مواصلة السير صباح يوم ١٢ نوفمبر .

وسمعت تفاسير كثيرة لاسباب تعرضنا لهذه المشاكل اثناء حركتنا المتعرجة التى نقلتنا خارج نطاق حماية الخليج المذكور لكن الاتراك لا يفكرون بطريقتنا وفي رأيهم ان السبب راجع لسوء حظنا وأنه يعود الى الجرائم والذنوب التي ارتكبها واحد ما على متن السفينة من بين افراد الطاقم أو الركاب .

وقال فضل كريم بأنه عقاب فرضه الرسول الكريم (ﷺ) على الجاني واقترح الوضوء على الجميع في صباح ١٢ نوفمبر . وكان البحر قادراً على

تنظيف المعاصي مهما كان حجمها وقال الاتراك بانه ما دام الجاني موجوداً على متن السفينة فقد تتعرض للكوارث المفاجئة وعندما تحسن الطقس في ١٢ نوفمبر شاهد الاتراك عربياً ويهودياً يغيبان عن موقع سارية المركب فاتهموهما بالذنوب والمنكرات . وقال واحد من الأتراك وهو يمر بيده على لحيته : «ان التزامن بين مغادرة الاثنين وتحسن الطقس يجعلهما حدثان مترابطان ويثبت اجرام الرجلين» وكان هو التفسير الوحيد للحادث الذي قدمه هذا الرجل المسن وأصبح الحادث نفسه نسياً منسياً بعد بضع ساعات .

ووصلنا الى مسقط في ١٢ نوفمبر ظهراً واثناء الدخول الى الميناء رأينا ٢٥ مركبا في طريقها الى بومباي تقودها الفرقاطة العربية «كارولين» وعلى متنها ٤٠ مدفعاً .

كما كانت هناك سفينتان كبيرتان رستا في المضيق وهما انجليزيتا الصنع بينما كان يتم تفريغ حوالي ٣٠ أو ٤٠ مركبا من شحناتها المكونة من التمور والملح والارز والبضائع المختلفة . واضطرت سفينتنا للبقاء في الميناء عدة ايام كي تتمكن من تفريغ شحنتها القيمة. وعلى الرغم من احتجاج أفراد الطاقم قرر ربان السفينة أن يرسو بها في مكان يقع في مدى المدافع الشمالية وهو قرار خاطىء كما ثبت من الأحداث التي وقعت فيما بعد .

تقع مسقط على الساحل الشرقي للجزيرة العربية على خط العرض ٣٨ ° ٢٣ شمالاً وخط الطول ٧ ,٢ ° ٥٧ ,شرقا وهي في عمان الخصبة ، وجاء ذكرها في كتابات «اريان» وكان الاغريق على علم بها إلا أنها لم تكن ذات أهمية حتى احتل الفرس هرمز عام ١٦٢٢ ولجأ اليها عدد كبير من سكان هرمز ومنذ ذلك الوقت نالت شهرتها كميناء ممتاز وأصبحت مركزاً تجارياً هاماً وتوفرت لعدد كبير من السفن ميزات ميناء واسع ذي سعة كبيرة . وكانت عمان بلاد العلم والمعرفة والقصص الرومانسية وأشياء غريبة مما أثار في قلبي روح الاستطلاع فنزلت الى الشاطىء راكباً زورقاً خفيفاً وكانت الروبية عملة مرحبا بها لدى العبيد الافريقيين الذين كانوا يجدفون في هذه الزوارق بالاجرة .

وعندما نزلت الشاطىء وجدت كلا من دار الجمارك والقصر والمنطقة المجاورة مكتظة بالعرب من كل مكان وقبيلة ومعهم اليهود والهندوس والبلوش والاتراك والافريقيون . وكل منهم يحمل سلاحاً . وكان العربي يحمل حسب تقاليد قبيلته نوعاً من الرماح والجندي البلوشي العاري الصدر نوعاً من السكين المنحني أو السيف ، والبدوي يلبس غترة مخططة حول الرأس وهو خشن في منظره أو مراقبته وعيناه ملتهبتان سريعتا النظرات ووجهه قلق ويبدو

كأنه السيد على ما يراه حوله دون منافس وهو خارج القانون او الانضباط ويتناثر شعره الاسود مع الرياح مما يزيد في خشونة منظره.

وتجولت بين هؤلاء الناس المتعددي الالوان والاجناس والصفات وأنا اجنبي غريب يتجول بينهم وكل واحد منهم مزود بسلاح سبق ان استخدمه بعنف في مناسبات عديدة . لكني لم أتعرض لأدنى تصرف غير لائق منهم قط حتى صادفت الارقاء الافريقيين الذين كانوا يعملون في حارة وراء المدينة . واعتبر هؤلاء بانني رجل غير مسلح ووجهوا اليّ نظرات وكلمات حقيرة مهينة ولما أشرت الى المسدس الذي كان مخبئا في حزامي لزموا الصمت وكثيراً ما يتعرض الأجانب غير المسلحين الذين يصادفون هؤلاء العبيد خارج حدود المدينة لاعمال النهب والاغتصاب .

وعندما رأى العبيد بأنني رجل مسلح يستطيع ان يدافع عن نفسه ويعرفني بعض الناس تجاهلوني وواصلوا اعمالهم . وقد رجعت الى مكتب وكيل السفينة في المدينة كي احصل على خدمة مرشد ومترجم ليرافقاني.

وسرعان ما رتب لي الوكيل «غلام انداس» مرشدا وخادما وواصلت جولتي في البلد معهما ظهراً فزرت السوق مرة ثانية وكذلك قريتين صغيرتين ومسجداً سمح لي بالدخول اليه دون اعتراض خلاف التقاليد المتبعة في الأماكن الأخرى وينتمي المساقطة الى مذهب الاباضية أو بوجاسية (ويسميهم البعض الخوارج) والاباضيون متسامحون الى درجة كبيرة وبسطاء في سلوكهم وسيرتهم ولا يبدون أي تفرقة بين دين وآخر ولا يفرقون بين آل البيت النبوي .

ولما رجعت مساءً عن طريق سوق الارقاء وجدت ان العبيد يباعون مرات أسبوعياً بواسطة المزاد العلني أو المقاولات . ووقفت عند محل يتاجر في الرقيق . ورأيت حوالي ٢٠ أو ٣٠ عبداً افريقياً جاءوا عبر الصحراء من زنجبار مصطفين على جانبي السوق وظهر بأنهم روضوا أنفسهم على قبول وضعهم ولم يكونوا يلبسون الا قطعة قماش حول الوسط فقط استجابة لرغبة أسيادهم وزبائنهم ورأيت الزبائن يمشون أمامهم ويختبرون أجسادهم وجلودهم بأصابعهم بدقة بالغة ... وشاهدت عربياً طويل القامة يعرض صبياً عمره ١٠ سنوات أو ١٢ سنة ويصرخ بسعره بصوت جهير مع مواصفاته . وعندما اقتربت منه قال باللغة الهندية «٤٠ دولاراً» ولك كل الحقوق منه أما أن تطعمه أو تجوعه أو تتبناه ولداً لك . ثم خاطب الصبي وصرخ في وجهة «ارفع نظرك يا شرير ! الفرنجي سيشتريك وهو رجل غني ويملك ثروة كبيرة» فرفع الصبي نظره وهو يمسك يد صاحبه . واشتراه أخيراً عربي مسن . ورأيت هذا

العربي يفحص اسنانه أيضاً وسمعت ان الأسنان تتعرض لعملية اعداد بواسطة برد تعدها لاكل لحوم البشر .

ان ذكر هذا الموضوع طبعاً يلفت النظر الى وجود ظاهرة الرقيق وآثارها في البلاد المسلمة التي زرتها لانني اتيحت لي الفرصة لأدرس جوانب عديدة لحياة العبيد في البيوت وسلوكيات اسيادهم في الأماكن المختلفة . وفي مسقط رأيت ان العبيد يتلقون دون شك معاملة لطيفة وانسانية وكانت أشق الاعمال التي يقومون بها هي تسيير القوارب الصغيرة لنقل الركاب الى السفن وهو عمل يعطي قسطاً من الراحة وليس بشاق عليهم . ويعيش العبيد في مسقط مع اسيادهم ويأكلون ويشربون معهم ومثلهم ولا يعرضون للبيع مرة ثانية الا في حالات سوء سلوكهم أو سوء تصرفهم وفي الحقيقة ان كان العبد صادقاً وفياً فان سيده يقدره تقديراً بالغاً ولا يفارقه الا في حالات استثنائية ولا يسلمه الا لصديق حميم له على المستوى الشخصي .

١٣ نوفمبر ١٨١٦م : لم اعرف متى نغادر مسقط فقررت ان استغل الوقت المتاح لي بأحسن طريقة وأزور الامام في اليوم التالي ثم اقوم بزيارة المنطقة الداخلية اذا حصلت على حرس شخصي لهذا الغرض كذلك قررت زيارة بعض الحدائق والعيون الحارة ذات الفائدة الصحية في اليوم التالي أي ١٤ نوفمبر ١٨١٦م . ولم يمض وقت طويل حتى اكملت الترتيبات المبدئية ووعدني التاجر الهندي بأنه سيزودني بالملابس اللازمة ومرشد وحصان وبعض العملة المحلية مما يضمن لي الأمان والحماية الا اذا قررت الاعتماد على قوة السلاح واستشرت مضيفاً محلياً . فنصحني بالاحتراس والحكمة بدلاً من السلاح والقوة ولما نزلت الشاطىء في ١٤ نوفمبر صباحاً وأنا في زي رسمي تلقيت احتراما واهتماما من الناس أكثر مما تلقاه منهم ربان السفينة ولم أشعر باي صعوبة في الوصول الى الامام وافسح الخدم الطريق لي حيث كان الامام جالسا في شرفة مفتوحة يهتم بالأعمال الرسمية وحوله الوكلاء والكتاب وعدد من العبيد . كان الامام هو السيد سعيد ، وهو في خريف العمر وحسن المنظر وحسن السلوك وكان قد عرف ممن حوله مسبقاً بانى ضابط بريطاني كما كان على علم بمهمتي فقام من مقعده ليرحب بى عند دخولي واستفسر عن صحتي واحوالي الشخصية كالمعتاد لدى المثقفين وأضاف قائلاً بانني لم اكن الضابط البريطاني الوحيد الذي زاره قبل سفره بل لقي عدداً منهم اما عند البداية واما بعد السفر عند العودة وذكر اسماء هم واثناء الحوار الذي جرى بينى وبينه تطرق الى كلام ودي لطيف غير رسمي وامتدح الانجليز بقصد ارضائي وذكر مدى اعجابه

بقوة الانجليز وهيبة البحرية الانجليزية وأراد بهذا الكلام ان يقنعني بأنه واسع الاطلاع على هذه الأمور ثم اشار الى حجز سفينة عربية من قبل الانجليز وهي تنقل العبيد وقال بأنه أمر بسيط وليس له أي أهمية ويمكن تسوية الموضوع بسهولة (كان ينتظر ملاحظاتي حول تسوية الأمر) لكني لم اتقدم بأي تعليق وأبديت رغبتي في المغادرة فودعني بحفاوة بالغة متمنيا لي دوام التوفيق والعافية وأمان الله ، وطلب مني ان أخبر الشركة (السلطات الانجليزية) عن اللقاء الذي تم بيني وبينه وانقل تحياته للأمير جورج .

عندما ذهبت الى التاجر الهندي وجدته يتكلم مع اثنين أو ثلاثة من العرب وقدم واحداً منهم كمرشد يمكن لي الاعتماد عليه وأضاف قائلاً بأنه سيزودني بثلاثة خيول لمدة ثلاثة أيام مقابل ٢٠ قرشا وهكذا بدأ التعامل بيننا . وجاء الشخص المذكور بثلاثة خيول فعلاً ركبنا الخيول وانطلقنا في رحلة مضنية غير مثمرة وفاشلة . وكانت المنطقة الداخلية جرداء وكئيبة وبائسة للغاية وسواحلها صخرية دون أدنى اثر لاعشاب أو أشجار أو نبات حول مسقط باستثناء بعض أشجار النخيل بالقرب من أبار الماء الواقعة في جنوب وغرب المدينة . ولما عبرنا الجبال التي تحيط بوادي مسقط تغير لون الصخور الى أرض حمراء صلبة قاحلة واستغرب العربيان اللذان كانا يرافقانني باني لا افهم حتى كلمة واحدة من كلامهما .

وعقب قطع ١٠ أميال وجدنا انفسنا على أرض مرتفعة مع أننا لم نجد منحدرات صخرية مفاجئة كانت تعرقل حركتنا الى الآن ومررنا ببعض الخيام والأكواخ قبيحة المنظر على الجانبين ووصلنا الى قرية صغيرة حيث كانت بعض النساء يعملن دون حجاب في العراء وأخذن في الجرى عندما شاهدننا وهن يصرخن بصوت جهير «اللصوص ، اللصوص» وبكل صراحة لم يكن منظرنا يجلب احترام الناس خاصة مظهر الرجلين اللذين كانا معي فهما في ملابس ممزقة وقذرة للغاية ورغم ذلك تساءلت يا ترى هل هذا التصرف يدل على كرم ضيافة القبائل الذي سمعنا عنه ؟ ونحن لم نظهر في سلوكنا أو تصرفنا بأن نوايانا غير شريفة ولم يزد عددنا على ثلاثة فقط وعلى كل تذكرت ان النساء على العموم يبدين الخوف من الاعتداء الجنسي أو على الأقل يتظاهرن بالخوف كرد فعل متوقع منهن فانتظرنا حتى خرج بعض الرجال بعد ان سمعوا صرخاتهن وعقب حديث قصير بيننا سمحوا لنا بالترجل من خيولنا حتى نأخذ قسطاً من الراحة بعد سفر دام أربع ساعات بسرعة بطيئة جداً وظننت ان هذا المكان يوفر لنا فرصة للاستراحة وبعض الأكل كي نستعيد حيويتنا ونشاطنا لحد ما لكنى أصبت بخيبة الأمل عندما لم يقدم لنا حتى

الماء ليطفىء ظمأنا وكما يبدو فإن الرجلين اللذين كانا معي لم يكن عندهما أي استعداد لضرورة الراحة أو الأكل والشراب وتعاملا معي كاننى كائن أصم وأخرس وحاولا أن يكلماني بالاشارات والرموز دون استخدام كلمة واحدة . (اظن انهما لجأ الى هذه الحيلة قصداً ليخدعا القرويين) . وقد تصرفت طبقا لهذه الظروف ولم انطق على الاطلاق خوفا من رد فعل القرويين اذا اكتشفوا هذه الحيلة .

وبعد حوالي ساعة من الجلوس والقيام في العراء قام عجوز ليرافقنا على قدميه وكانت لحظات الغروب تقترب بسرعة ولم أستطع ان اسألهم عما هو المقصود الآن لاني كنت اعرف كلمات مفردة فقط وليست جملا ولم استطع ان أسألهم عن المكان الذي كانوا يتـوجهون اليـه والقصدمن المغامرة العديمة الجدوي المقبلة . وما كان بيدى الا أن اعتمد على أمانة المرشد الذي رافقني وكلما تقدم الليل زاد القلق وندمت على تصرفي في الاندفاع الى مغامرة محوطة بالمصائب دون أدنى احتمال لمصادفات سارة أو مفاجئة قد تعوضني عنها واصابتني خيبة الأمل والضجر عندما لم أر حولي الا العزلة والفقر وعلى كل واصلنا الركوب لحوالي ٦ ساعات حسب تخميني لأننى تـركت ساعتي في السفينة خوفا من الحوادث المحتملة واعتمدت على التخمينات فقط . وكانت معنـوياتي منخفضـة جدا بسبب الجوع والعطش والتعب وفجأة وجدنا أنفسنا أمام قرية أكبر من القرية السابقة واخبرني المرشد باشارات باننا سوف نمضي باقي ساعات الليل فيها .

ورقدت على الأرض الصلبة دون أكل أو شرب أمام مبنى كبير مربع علمت فيما بعد بأنه لأمام مسقط .

ولما استيقظنا في الصباح حاولت جذب انتباه مرافقي بأني عطشان وفي أشد حاجة الى الماء فاشرت الى فمى عدة مرات وتمنيت ان يجلب الماء والتمر فجاء بهما فعلاً وجاءت عجوز بقطعة خبز من الشعير سوداء اللون وقدمت لها قرشا واحدا لكنها رفضت قبوله ولما طلعت الشمس وجدت القرية أكبر مما كنت اتصورها وكان أمام المبنى حوض مزود بماء من عيون كانت حوله كما كانت في ضواحيها اشجار النخيل والرمان كانها بيت بحديقة حوله وبعد ان تفقدت الموقع واكلت ما قدم لي واطفـأت حبي للاستطلاع جاء مرافقي بالخيول لمواصلة ركوبنا غربا لكني أشرت له بحزم بعدم رغبتي في مواصلة الركوب أكثر من ذلك وسرت بعض الأقدام في اتجاه معاكس كي أعبـر له عن تصميمى على العودة من حيث جئنا . ورجعنا بالفعل بطريق أقصر استغرق ثماني ساعات وكان الطقس حارا رطبا وكنت منهكا ومرهقا الى أقصى درجة دون أكل أو شرب أو نوم ووصلنا الى حيث بدأنا مغامرتنا الشاقة في المساء

التالي .

وفي ١٦ نوفمبر ١٨١٦م في الساعة الثامنة صباحا وصلت سفينة من البصرة وهي سفينة عربية تسمي «خسروي» حمولة ٣٠٠ طن وجاء ربانها الى متن سفينتنا ليستلم الرسائل الموجهة له من بومباي ولينقل لنا اخبار البصرة وانتهزت الفرصة لزيارة الشاطئ ثانية معه وفي قاربه على الرغم من انني كنت لاازال اشعر بالتعب وخيبة الأمل الناجمة عن مغامرتي الأخيرة . وبدا ان سوء الحظ كان يطاردني فعندنا بدأت جولتي في السوق اشتدت الرياح وتحولت الى عاصفة خطرة وكنت قلقا على كيفية العودة الى السفينة لأنني ما كنت واثقا بكفاءة قائدها وكان بالامكان ان يتركني على الشاطئ ويبحر فاستأجرت قاربا مقابل دولار كامل كي يوصلني الى السفينة ولكن تلاطم الأمواج في البحر كان مخيفا ورفض صاحب القارب قائلاً بان المد والجزر الشديد يشكلان خطراً كبيراً على سلامة القارب الصغير وكلما زاد الخطر زاد قلقي ورغبتي في ان أعود الى السفينة في أقرب وقت ممكن فاستخدمت كافة أساليب التهديد والتعويض لأحث العبيد على الابحار حتى حاولوا ذلك لكن الظروف كانت قاسية وكنا نكاد نغرق لولا النجدة التي وصلت من السفينة «خسروى» من حسن حظنا .

وركبت اللانش الذي جاء لمساعدتي ووصلت الى سفينتي بصعوبة كبيرة وعندما صعدت الى السفينة وجدتها في حالة يرثي لها بسبب اختيار ربانها موقعا غير ملائم تماما فقلت لنفسي «كم كان حسنا لو بقيت على الشاطىء ليتني عرفت وضع السفينة قبل ان احاول الوصول اليها بالقارب ، وللعلم فان ربان السفينة كان مصرا على اختيار مرسى السفينة منذ البداية وكان قد فقد اعصابه الآن كئيبا وحزينا للغاية ونموذجا مجسدا لليأس وفقدان الأمل وينوح على حظة السيء والخسائر المرتقبة التي سوف يتكبدها وكانت السفينة تنجرف نحو الصخور دون أن يستطيع احد التحكم فيها وواجهت خطراً محققا فعلاً وكان زميله واقفا معه وهو يدخن ولا يبالي بما يحدث حوله وكان يعكس نوعا من الثقة والأمل كبحار محنك . وكانت المرساة قد تحركت من مكانها وأمسكت في موقعين أو ثلاثة مواقع وكان من المحتمل ان تمسك في موقع ما وتستقر . وقدم الرجلان مثالين متباينين في مواجهة الخطر ولولا الملابسات الخطرة لهذه الدرجة لكان الوضع يثير الضحك . قال زميل الربان : «لا يمكن لنا أن نعمل شيئا ما في هذه الظروف لأنه لايمكن رفع المرساة من مكانها وليست هذه أول مرة أواجه مثل هذا الموقف بل هي المرة الثالثة وبدأ يرد على اسئلتي بمنتهى الهدوء واللامبالاة متجاهلاً الخطر الذي كنا فيه وذكر كيف أنه قرر

الابحار هذه المرة والقصد منه وكيف يريد أن يتصرف فيما بعد وكيف نجا في المرات السابقة وتفاصيل خط العرض وخط الطول والاتجاة وسرعة السفينة الخ وهو ينفث الدخان من حين الى آخر ثم توقف فجأة وقال «تماسكت المرساة الآن هلابنا» وجرى الى الوراء وهو يمسك الحبل بنشاط وسعادة وحيوية تامة وحركة سريعة ذكرت هذا الحادث بالتفصيل تقديرا لهذا الملاح الشجاع . فقد شاهدت هذا الملاح يلزم الهدوء والاعتماد على النفس بشجاعة في مواجهة خطر بالغ ممثلاً البواسل والأبطال الذين تدوم ذكرى أعمالهم الجليلة ومثابرتهم الى الأبد وكنا في ذلك الوقت نمسك بخيط ضئيل من الأمل تحت تصرف القضاء والقدر الذي قد يقضي بالموت أو الحياة وأن فترة انتظار المجهول مخيفة أكثر من مواجهة الموت نفسه وقد نجونا من الكارثة مؤقتا لكننا قضينا الليلة في خوف وقلق حول مصيرنا فلم تكن عندنا الامرساة واحدة وكانت الصخور قريبة جداً من مؤخرة السفينة ومع كل حركة في المياه حولنا كانت سفينتنا ترتفع الى مستوى الصخور العلوية وتنزل الى الصخور السفلية تحت الماء على التوالي مما يهدد سلامة السفينة ومن عليها وبعد مضى ساعات في هذه الاوضاع غير المستقرة عاد الهدوء بطلوع الفجر وطلعت الشمس ساطعة على ظهر المركب غير ان البحر كان لا يزال ثائرا حولنا وعاد معظم ركاب السفينة الى ظهر المركب باستثناء المملوك الذي كان يعرف عدة لغات والسبب في عدم حضورة يرجع الى تعليمات تلقاها من البصرة بالبقاء في موقعة حتى موعد مغادرة القافلة التي كانت قد دخلت الى مخا أو القصير وذلك كان وشيكاً .

وقبل أن نغادر مسقط كان يجب علينا أن ننظر اليها كمستودع رئيسي في الخط التجاري على الرغم من ان صادراتها اقتصرت على التمور من نوع ردىء وسبعة أو ثمانية آلاف كيس من البن وكمية من الكبريت والأصباغ وبعض الخيل والجمال وسبائك ذهبية أو فضية مقابل مشترياتها من البضائع الهندية. وعدد سكان مسقط متغير من حين لآخر وهي مدينة نشطة جداً وتتعرض لتدفق الزوار من الأجانب وتظهر أكبر من حجمها الأصلي وعلى أقل تقدير لا يقل عدد سكانها عن ٣٠,٠٠٠ نسمة بما فيهم الأجانب اذا أخذنا بعين الاعتبار عدد السكان في مدن أخرى ومساحات تلك المدن وطرز بيوتها سعة وارتفاعا وأسلوب المعيشة والمساحة التي هي في الغالب غير مأهولة. وأظن أن عدد سكان «مطرح» يبلغ حوالي ١٠,٠٠٠ نسمة والقرى المجاورة حوالي ٧٠٠٠ نسمة فأحسن تقدير لعدد السكان من حيث المجموع هو ٤٧,٠٠٠ نسمة.

وفي عام ١٦٥٠م بنى البرتغاليون تحصينات فيها وسبق لهم أن

استقروا فيها لمدة ٣٠ سنة وكانت قلعتهم قوية البنية في مظهرها الخارجي لكن في رأيي أن مدافعها لم تكن في مواقع سليمة ولم تكن في وضع يسيطر على المداخل عند الهجوم عليها من حيث مدى الرؤية وأظن أن المظهر الجانبي للقلعة لا يعطي لها مزايا دفاعية قوية بل ان المرتفعات المحيطة بها تجعل الدفاع عنها متعذرا حتى ولو تغيرت مواقع المدافع التي تدافع عن المداخل.

وعلى العموم فإن مظهر المدينة ومبانيها غير مثير للاعجاب وتقوم مسقط بدور المستودع التجاري لتوزيع السلع وعلى هذا الأساس تزورها عدة سفن كما يزورها الناس من جميع بقاع الجزيرة العربية. وأسواقها المغطاة مزودة بسلع متنوعة وبكميات كبيرة مما يدل على الثروة والرخاء والنشاط التجاري الى حد كبير. وأما الطقس فعلى سبيل المقارنة يمكن الاشارة الى أن درجة الحرارة في عرض البحر هي ٨٢° وفي الميناء ٨٦° بينما تصل الى ٩٠° داخل المدينة. وككل لم تكن أسوأ من بومباي في هذا الفصل من السنة بالذات لكن الحر يزداد في أشهر يونيو ويوليو وأغسطس مما يجعل من الاستحالة على المارة التجوال في الشوارع علاوة على الأضرار التي تترتب على الصحة عامة في هذا الموسم ومع ذلك تنتج البساتين هناك بعض الفواكه ومنها البطيخ والعنب والرمان من أحسن نوع نكهة وطعما. ويمكن وصف الرمان كفاكهة الجنة حقا وعلى الرغم من ان شاعر شيراز ادعى بأفضلية رمان شيراز وفخر به ولكن أظن أن الفضل يعود لرياح الشمال في الصحراء التي تنضجه على نحو مثالي لأنها تفجر قشرته بفعل الحرارة وتجفف العصائر التي تفسد طعمه وتجعله رديئا.

وعقب زوال الامبراطورية البرتغالية في الشرق استعاد العرب سيطرتهم على مسقط بقيادة يوسف بن علي، الذي قتل جميع أفراد الحامية البرتغالية عدا القليل منهم الذين اعتنقوا الاسلام. ومنذ ذلك الوقت ظلت مسقط حرة باستثناء فترة قليلة في عهد نادر شاه لأنه استغل الخلافات القائمة آنذاك بين سلطان بن مرشد والامام سيف بن سلطان ونجح في احتلالها عن طريق حيلة نفذها قائده العسكري ميرزا تقي خان فقد أقام هذا الرجل الماكر المخادع حفلة للإمام وغمره بماء شيراز (الخمور) بوفرة وسرق خاتمه وهو تحت تأثير الكحول وثبته على أمر لتسلم القلاع التي تدافع عن المدينة له. لكن حكم الفرس لم يدم طويلا لأن المنافسين توفيا بعد أن طردهما والى صحار أحمد بن سعيد مستخدما حيلة مماثلة واختاره الناس حاكما عليهم بمشاعر الشكر والعرفان لتحريرهم من نير العبودية للأجانب.

والإمام الحالي السيد سعيد هو

الابن المثالي الثاني لأبيه وكان محبا للوطن، وهو يسكن في قصر بالقرب من البحر وكان هذا القصر يوما ما كنيسة للحرس البرتغالي. ويتمتع هذا الإمام بأهمية كبيرة وحرية كاملة وهو مستقل عن الباب العالي تماما ويتقاسم هذا الجزء من الجزيرة العربية مع كل من أمير مخا والسعوديين ولو بنسب غير متساوية.

وتمتد سلطته على عمان فقط. وحسب التقارير المتوافرة يستطيع ان يجند ٧٠٠٠ جندي من البلوش والسنديين من منطقة «تاتا» المجاورة لكنه لا نظير له بين القبائل كصاحب قوة بحرية لا يستهان بها. ويستطيع سكان رأس الخيمة تعبئة بضعة آلاف من الفرسان وهم يستخدمون الخيول بمهارة في ساحة القتال. وتتكون قوة عمان البحرية من الفرقاطة (كارولين) ذات الـ ٤٠ مدفعا كما ذكرت ومعدات أخرى لا بأس بها ومركبين كبيرين كانا مركبين هنديين وحوالي ٣٠ أو ٣٥ مركبا صغيرا. ومن الصعب علينا أن نقدر طاقتها القتالية بدقة بسبب التفاوت الكبير في البيانات التي تصدر من التجار والضباط المحليين.

ومن حيث اللغة التي استخدمتها مع الآخرين وجدت بأنها مفهومة بقدر كاف وكان بالامكان ان أجمع معلومات أكثر عن الأمور باستفساراتي المكثفة لكني لم أنجح بالقدر المطلوب. ووجدت ان بعض الناس يتظاهرون بأنهم يعرفون أكثر مما كانوا يعرفون حقا كما كان البعض يلجأ الى الافتراء والتشوية لأنهم تعودوا على ذلك دون ان يكون لهم أي هدف آخر. وأظن هذه ميزة سلبية لبعض الشرقيين الا أن لديهم مميزات ايجابية أخرى. ونظراً لأنني حريص على الالتزام بالصدق والدقة فإنني أتجنب ذكر بعض المعلومات التي جمعتها بسبب عدم ثقتي في مصداقيتها وأذكر الأحداث التي أثق بها فقط.

غادرنا مسقط في ١٨ نوفمبر ١٨١٦م ووصلنا عند الظهر الى خط العرض ٣ ٢٤° و تعرضنا للأمطار مساءً مما خفض درجة الحرارة من ٨٠° الى ٧٤° وفي ١٩ نوفمبر لم تتجاوز درجة الحرارة ٨٦° وشاهدنا كسوف الشمس عند خط العرض ١ ٢٥° في الساعة الثالثة والربع بعد الظهر ولم ينظر العرب والفرس والأتراك الى الشمس مباشرة بل الى انعكاسها في براميل الماء الموجودة على ظهر السفينة. ولم يحدث شيء يذكر في هذين اليومين الا أن العشرين من نوفمبر شهد التوتر والاضطراب فجأة على ظهر السفينة عندما اندلع قتال بين الفرس والعرب. ولم أعرف في البداية ما هو السبب للقتال ونوعه لكني رأيت نائب الربان متورطا فيه وسمعت ربان السفينة يدعو الى سيفه بصوت جهير ففكرت بأنه من الواجب أن أساعده وأفراد

الطاقم البؤساء الذين تصرفوا كأنهم جنود وكانوا يحاولون دفع المتمردين نحو مؤخرة السفينة وقد نجحوا في هذه العملية من حسن الحظ دون إراقة دماء. واكتشفنا فيما بعد بأن الفرس تشاجروا مع طاقم السفينة حول أمر تافه وبدأوا معاقبة أحد أفراد الطاقم بصورة وحشية بمحاولة خنقه ولما أسرع الى نجدته فرد آخر قامت الجماعة بمحاولة خنقه أيضا. وأمضى المتمردون الفرس الليلة وراء القضبان الحديدية في مؤخرة السفينة وهم مشدودون بالسلاسل وفي الصباح التالي وجدناهم مهزومين وكان أشدهم تكبرا يلتمس العفو والرحمة واطلاق سراحه.

وفي ٢١ نوفمبر ١٨١٦ وصلنا الى جزيرة منخفضة صخرية ورأينا هرمز والمعروف أن هرمز اشتهرت بأسماء مختلفة كـ«نكروكين» لدى التتار و«أرمازيا» أو «أورجانا» لدي القدماء. وثروة هرمز ورخاؤها مرتبطة بالعهد الذهبي في تاريخ البرتغال وتاريخ مغامريها الأوائل وسمعتهم، وهم الذين اكتشفوا الطريق البحري الذي نسلكه اليوم ولا يجوز لنا أن نمر به بصمت واستخفاف واهمال لمنجزاتهم. وفي الحقيقة فإن الفرصة تتاح للرحالة لمشاهدة التغييرات التي طرأت على الأماكن والظروف التي تحيط بطريقه كل مرة يسافر فيها.

وفي القرن الحادي عشر أسس فاتح عربي مدينة على أرض قاحلة في جزيرة جمبرون وأصبحت هذه المدينة فيما بعد عاصمة لامبراطورية ممتدة من الشواطىء الايرانية الى الشواطىء العربية كما انها أصبحت مستودعا للبضائع التجارية وهمزة وصل بين الهند وأقاليمنا بمناخها الخاص وتوافرت للجميع هنا تسهيلات سكنية ممتازة أحسن من أية مدينة شرقية أخرى آنئذ، وحشدت هناك نساء جميلات من كل بقعة من قارة آسيا متدربات منذ الصغر على فن الاثارة وإبهاج الحواس الجنسية وتعرض هاته النسوة أنفسهن على الناس للاستمتاع بهن ويتمايلن أمام التجار والأجانب الأغنياء الذين يعرضون ثروتهم عليهن مقابل ابتساماتهن المغرية. كان الهواء يحمل في طياته روائح عاطرة والفرش مغطى بسجاجيد فاخرة خلابة الألوان فكانت جمبرون بذلك تنافس مدنا أخرى تقوم بدور مماثل في الأزمنة القديمة. لكن الآن رجعت المدينة الى ما كانت عليه قبل ازدهارها أي الى أرض قاحلة عليها قرية بائسة وفيها بعض الفقراء العرب في محل كان ينغمس فيه الملوك والأمراء في مرح صاخب وترف شديد الزخرفة. ونحن نعرف اليوم تاريخ إضمحلالها وإنحطاطها. فقد فتحها البوكرك الشهير في عام ١٥٠٧م واستردها الفرس في ٢٥ ابريل عام ١٦٢٢م

بقيادة شاه عباس الأعظم وعقب هذه الفترة نقل جزء من نشاطها التجاري الى بندر عباس حيث سمح لنا (أي الانجليز) بفتح مكتب تجاري كما انتقل عدد من التجار الأغنياء الى مسقط على الساحل العربي.

سببت العواصف لنا في الأيام التالية كثيرا من الازعاج لأن الرياح كانت معاكسة لاتجاهنا فأرسينا وصادفنا مركبين من طراز «الداو» بالقرب من جزيرة «كين» وهما من مراكب القراصنة وكانت هذه الجزيرة مقرا لهم وتغلبنا على مخاوفنا لأننا كنا أقوى منهم فلم يجرؤوا على مهاجمتنا وعلمت بأن سفينتنا تعرضت لهجومهم في مرة سابقة ونجحت في التصدي لهم رغم أن هؤلاء اللصوص الوحوش وهم رجال خارجون على القانون قساة القلب وليس لهم أدنى علاقة بالسلوك المتمدن أو الاعتماد على تصرفهم أو الثقة فيهم. ورغم كل ذلك فأن تصرفاتنا (أي الانجليز) تدعو الى الخجل لأننا تعاملنا مع هؤلاء الهمجيين بارسال الوفود والبعثات لهم وعقدنا معهم اتفاقات مع العلم بأنهم استغلوا قوتنا البحرية لصالحهم ضمانا لأمانهم فقط. وهذا التصرف كان بمثابة وصمة عار على جبيننا. لو كان ذلك ضمن حرب قانونية لكان له مبرر لأن الحرب لها ضوابط وقوانين وأعراف معترف بها دوليا بصفة عامة وهناك نوع من الثقة تربط بين الدول المتحاربة المتمدنة على أساس متبادل حول مسألة الأسرى لكن القراصنة يقتلون أسراهم على الفور بصورة بشعة دون استثناء ويشوهون أجسادهم وفي وجه هذه الوحشية فان معاملتنا لهم تدل على ضعفنا وبل مشاركتنا في جرائمهم.

يتكون القراصنة في منطقة الخليج من قبائل عربية شتى. وحكومتنا غير راغبة في مواجهتهم مما يجعلهم يفخرون بحصانتهم. ولديهم اسطول مكون من ٦٠ سفينة كبيرة وحوالي ٩٠٠ سفينة صغيرة وقوامها حوالي ١٩,٠٠٠ نسمة. ويرجع تاريخهم الى زمن بعيد كامبراطورية لملك القراصنة الذي نهب كل سفينة قيّمة (وجاء ذكرهم في كتاب لابن حوقل) قبل خروج بني اسرائيل من مصر.

وقد ثبت ان القراصنة يعملون ضد المصالح التجارية البرتغالية وكذلك ضد مصالحنا التجارية وتحمل سفنهم أحياناً ٤٠ قطعة من المدافع و ٣٠٠ مقاتل. وفي عام ١٨٠٨م قبضوا على طراد لشركة الهند الشرقية يسمى «سلف» وكان على متنه السكرتير الفارسي الذي كان ملحقاً ببعثتنا وبدأ القراصنة في قتل افراد الطاقم حتى وضعت سفينتنا «نرايدى» حداً للمذبحة وانقذت الباقين على قيد الحياة ثم اطلقت النار على القراصنة وأغرقتهم بعد قتال كثيف عنيف. وعقب هذا الحادث تعرضت السفينة

التجارية «منيرفا» بقيادة الكابتن هوب جود لهجوم من أسطول مكون من ٥٥ مركباً ومنها عدد من سفن الداو وعليها ٥٠٠٠ مقاتل. واثر قتال دار من الطرفين من بعيد ليومين اقترب القراصنة من السفينة وصعدوا أخيراً على متنها وما كان امام الكابتن هوب جود إلا أن أصدر أمراً لمساعده أن ينزل الى مخزن الذخيرة ويشعل النار في البارود. وكان المنظر على السفينة مخيفاً للغاية ولا يمكن وصفه لأن الكابتن كان يلفظ انفاسه الأخيرة اثر جرحه وسلم لمساعده المسدس لينفذ أمره بتفجير السفينة ولو حدث ذلك فعلاً ونفذت أوامره لكان مثالاً رائعاً لثبات الإنجليز في عزمهم وعنصراً مناصراً للملاحين مستقبلاً لكن مساعد الربان لم يقم بواجبه بل اختبأ في أسفل السفينة، وانتهت المقاومة على ظهر السفينة بعد قليل وبدأت المذبحة والقتل الوحشي وفقاً لطقوس خرافية وكان هدفها بذر الخوف والذعر فيمن حولهم . وتم تنظيف السفينة وتطهيرها بالماء والأدعية والعطور ثم جاءوا بالاسرى جماعات وأفراداً مقيدين ومكبلين بين هتافات التكبير المرفوعة من كل جهة وعرض كلهم أعناقهم للذبح بالسكين وتمت العملية فعلاً. ولم ينج أحد إلا واحدا أعمى أطلقوا سراحه في الميناء التالي كي ينقل الخبر المشئوم للآخرين.

وفي عام ١٨٠٩ نفد صبر حكومتنا لأن القراصنة وضعوا حداً لأنشطتنا التجارية بواسطة هجماتهم الجريئة على سفننا فقامت بتنظيم حملة تأديبية تحت قيادة الكابتن «وين رايت» والكولونيل سميث، ونزلت القوات على شاطىء رأس الخيمة واحتلته ودمرت ٥٣ سفينة كبيرة لهم ثم هاجمت موانيهم الأخرى وقام القراصنة بالدفاع عن «شناص» ونظراً لأن القراصنة لا يرحمون أسراهم قط كانوا يتوقعون نفس المعاملة من معتقليهم فيدافعون عن قلاعهم بحزم حتى آخر لحظة ويرفضون الاستسلام ويرمون قنابلنا اليدوية والقنابل الأخرى بعيداً عن مواقعهم قبل انفجارها. ورغم ذلك ورغم غيظهم الشديد فلم يستطيعوا مواجهة ضرباتنا ويلتزموا الصمت لعدة سنوات بعد تنفيذ العملية من جانب قواتنا. ويرجع السبب لهذا الصمت الى نقص الخشب لإعادة بناء السفن لتحل محل السفن المدمرة وإلا عادوا لمواصلة عملياتهم كالمعتاد لأنهم تعودوا على القرصنة كأمر طبيعي. وفي عام ١٨١٦م أبدى القراصنة ميولهم المتزايدة في ممارسة مهنتهم الإجرامية وقد أصبح من الضروري أن نقمعهم بالقوة.

ان الأسفار البحرية عامة ليس فيها ما يشوق المسافرين وهي تملؤ قلوبهم بالملل والضجر بسبب رتابة المناظر وتكرارها يوماً بعد يوم من البحر والسماء دون حدث قد يشغل

بالنا أو يريحنا. لكن سفري هذا كان مليئاً بالمفاجئات والمغامرات والأخطار أكثر مما قد يرحب به أي مغامر شجاع في أي وقت. وبعد ما تجاوزنا الأخطار الناجمة عن الصخور وحادث التمرد والقراصنة سمعنا إنذاراً ملحاً بصوت جهير من ربان السفينة في ٢٨ نوفمبر ١٨١٦م صباحاً ينادينا للدفاع عن أنفسنا وإلا تعرضنا للذبح جماعياً ولبينا النداء على الفور لأننا كنا قد تعودنا على حمل السلاح عند النوم وقبل أن امسك المسدس والسيف في الظلام فتح الباب فجأة وتعرضت لهجوم بالسيف لكن الطعنة لم تسبب لي إلا جروحاً خفيفة. فقفزت على المهاجم ونزعت السلاح منه فوجدت فيما بعد بأنه ليس إلا ربان السفينة ومن حسن الحظ انه اخطأ في ضربة سيفه فلم يصبني إلا بجروح تافهة وكذلك لم أصبه عند تجريده من السلاح إلا بجروح تافهة. ويبدو أن صاحبنا ظن نفسه معرضاً لهجوم فأثار الضجة دون أن يكون هناك أي مبرر لها. والغريب أنه كرر نفس التصرف فيما بعد وأضطررنا أن نفرض عليه بعض القيود اجبارياً كي نمنعه من ذلك لأنه كان في حالة نفسية سيئة. ووصلنا الى بوشهر في ٤ ديسمبر ١٨١٦م وقبل ذلك جنحت السفينة مرتين.

ولما وصلنا الى بوشهر وجدنا ان المقيم (المستربروس) ليس موجوداً بل كان في بعثة للقراصنة في رأس الخيمة ضمن واجباته الرسمية وكان ينوب عنه مساعده الدكتور «شارب» الذي بذل جل اهتمامه لرعايتي لأنني كنت المسافر الوحيد الذي بقى على متن السفينة آنذاك وتعامل معي بلطف وكرم بالغ. ونظراً لأن السفينة كان متوقعاً لها أن تبقى هناك لبعض الوقت أردت زيارة شيرازو سابور في هذه الفترة لكنني لم أستطع أن أقوم بذلك واكتفيت ان اتجول في السوق وفي المناطق الداخلية وأسأل الناس عن الأوضاع السائدة في ايران وعن تاريخ بوشهر بصفة خاصة كما يفعل الرحالة.

وكان تاريخ ايران القديم معروفاً ومفهوماً اكثر من أوضاعها المعاصرة منذ اهتم الجنرال السير مالكولم : سفيرنا السابق لدى البلاط الملكي بالموضوع. وعقب امبراطورية ملوك البارثيان تولى الحكم خلفاء «سليوكس نيكاتور» الذين قاتلوا أباطرة روما وانتصروا احياناً وخسروا احياناً أخرى. وفي ظل الظروف التي برز فيها الرحالون أسس كل من «تانغرولبكس» وهو تركي، و «الاهون» (او الله خان) التتري سلالة للملوك وجاء بعدهما «التركمان» و «الصفويون» وعقب وفاة «طهماس كولى خان» (نادرشاه) الذي تولى منصب الجنرال وقضى على الصفويين انتشرت الفوضى مما جعل من المستحيل لأحد أن يتابع الأحداث والتواريخ بدقة لأن عدداً

كبيراً من الأشخاص لعبوا دوراً على المسرح لفترة وأختفوا فيما بعد وأكثرهم نفوذاً كان محمد حسن خان وهو رئيس قبيلة «قاجار» الذي تولى منصب القائد العسكري تحت حكم آخر حكام الصفويين ولا يزال يحكم خلفاؤه حتى الآن. وكان آغا محمد خان، ابنه الثاني قد تغلب على لطف علي خان (الحاكم الأخير واكبر خلفاء كريم خان نفوذاً) واستعاد السلطة ونقلها الى الملك الحالي وهو ابن أخيه الأكبر الذي قتل في المعركة على يد التركمان.

ان عهدي حكم كل من كريم خان ولطف علي خان يحتاجان في الوقت الحاضر الاهتمام بهما بسبب إرتباط احداث عهديهما بتاريخ بوشهر فلا يجوز لاي رحالة ان يجهل هذا التاريخ. وكان كريم خان أصلاً لصاً كردياً من قبيلة حقيرة تسمى «زند» لكنه نال شهرة بسبب شجاعته وقتله محمد حسن خان ثم أسس سلطة سيطرت على توابع شيراز لفترة قصيرة عندما كانت السلطة الملكية مفقودة. وعلينا أن نبدأ بسرد تاريخ قصير لبوشهر لأن أهميتها ليست بكبيرة ولا تستحق الا ذكر تاريخها باختصار. وتقع بوشهر في منخفضات ولاية دشتستان في شريط ضيق من الأرض تراجعت عنه مياه البحر وجاء ذكرها في كتابات «نيركس» وكانت مقراً لاحدى الدويلات العربية وكانت سياسة كريم خان تركز على قمعها وتدميرها لكنه في عهد الشيخ نصر جد الوالي الحالي، بلغت هذه الدويلة ذروتها في الرخاء والإزدهار والنفوذ.

ويرجع ذلك الى تصميم الشيخ نصر ومجهودات ابنه في هذا السبيل عقب وفاة ابيه.

ويعتز العرب حتى الآن بذكرى هذا الزعيم لكرمه وللمثل العليا التي تسمو اليها قبائل دشتستان. وعندما كانت المنافسة على اشدها بين عبدالرسول ومحمد رسول وهما حفيداه من أجل السلطة فإن هذه المنافسة لم تصل لدرجة العنف والصراع بشكل غير طبيعي مثلما هو مشاهد بين اعضاء العائلات الشرقية. وكما يبدو فإنهما تراضيا على ان يحكما بالتناوب. ويظهر ان الإعتدال في تصرفاتهما في الحقيقة يرجع الى تقلبات الزمن والالتباس في السلوك الشخصي الأخلاقي الناجم عن تجربة مريرة لحقت بعبدالرسول عندما القي القبض عليه في وقت مضى ونقل الى شيراز دون أدنى احترام لشخصيته أو مراعاة لمشاعره وكان السيرهارفورد جونس هو سفيرنا لدى البلاط الملكي في ايران.

وكانت لمدينة بوشهر ظروف خاصة من حيث موقعها ونوع حكومتها مما جعلها ملاذاً مفضلاً للاجئين والهاربين البارزين الذين تعرضوا للصراعات الداخلية أو الضغوط المسلحة فاضطروا للفرار

تعتمد على نزوات الارقاء المتغطرسين. وإذا انشأنا حامياتنا في هذه الأماكن نكون في موقف أفضل تجاه دول الخليج بالإضافة الى توطيد نفوذنا في البلاط الملكي الايراني ونستطيع ان نفرض على هذه الدول نوعاً من الحذر والاحتياط في تصرفاتها كما يمكن لنا أن نتظاهر عند الاقتضاء بتقديم تنازلات لمزاعمهم ونظراً لموقع الكرامة والوقار الذي نتمتع به كقوة رائدة في الشرق علينا أن نستغل تفوقنا البحري لصالحنا لأننا نتعرض للغيرة والحسد ويجب ان نتعامل من موقع القوة. وعلى الرغم من ان الناس يحترمون قوتنا إلا انهم لا يفهمون قوامها بسبب ضعف سياستنا نحو القراصنة حتى نحو اضعف جماعاتهم. وبخصوص الهدايا التي تقدم للبلاط الملكي الايراني فإنهم ينظرون اليها كأنها خراج ندفعه لهم. وللعلم فإن روسيا تسلك نهجاً مختلفاً في سياستها تجاه ايران وتتعامل معها من موقع القوة على كافة المستويات وتملي عليها ما يجب ان تقوم به. في حين نأمل ونرجو أن يكون تصرفها وفقاً لوعودها التي كثيراً ما تكون خادعة أو وهمية وتفتقر الى الجدية ومؤدية الى خيبة الأمل عند التنفيذ. وأمامنا مثال رائع لفاعلية سياسة القوة وكيف يكفي حتى قدر تافة منها ليضمن النجاح. فلدينا قوة أكبر وقدرات أكثر ويتمتع سلوكنا باحترام أكثر وسياساتنا مستنيرة أكثر من البرتغاليين والهولنديين ويتضح هذا في الفترة التي انتصرت فيها أساطيلهم في الخليج وتحدت كلاً من الايطاليين والايرانيين والاتراك. وما علينا إلا أن ننتهز الفرصة لأقصى حد لإستغلال ميزاتنا ونفوذنا خاصة في ايران مما يضمن لنا استمرار وأمن الأمبراطورية التي انشأناها.

وغير موقعها المركزي تشتهر «خرج» بآثارها الباباوية المسيحية الخرافية التي تركها البرتغاليون كالعادة تذكاراً لمجدهم العسكري وتعصبهم الديني. وقد تم تحويل احدى كنائسهم الى ضريح مقدس لـ «بير محمد». وتوجد الصلبان والطابوق الملون والاشياء الأخرى التي ترجع أصولها الى الكنيسة السابقة والشيء الذي تغير هو مجرد الإسم والشكل ولا يزال هذا المبنى يشيع الإحترام الديني نحوه. ويقع المدخل لهذا الضريح أو الكنيسة عن طريق سرداب طويل أو قناة وكانت تستخدم في الماضي لنقل الماء من جانب جبل يقع أمامها وتوجد ثقوب في السرداب على فواصل متتالية من أجل دخول الضوء والهواء. ويبدو من هذه الميزة المعمارية بأن «خرج» كانت غنية سواء من حيث عدد السكان أو ثروتها لكن في نفس الوقت توجد كهوف في جهة الجنوب منحوتة في الصخور مما يعطي انطباعاً سلبياً عن مستوى سكان المدينة الذين اتخذوا الكهوف سكناً لهم.

اظن انني أطلت في هـذا الـوصف لجزيرة «خرج» وهو ما تستحقه لكني أعتقد بأنه يفيدنا لاحقاً إذا قررنا في المستقبل استغلال مزاياها لصالحنا واخترناها موقعاً قد ينفعنا فالقلعة التي تحمي المدينة في مكان الإنزال مصنوعة من الحجر وفيها ٤ أبراج في الجهات المختلفة ومنصة منهدمة أمام بابها بالقرب من البحر ويمكن نصب ١٢ قطعة من المدافع عليها.

وفي رأيي أن جزيرة البحرين هي المكان الوحيد الذي يبقى الآن للاهتمام به في مياه الخليج ونحن نواصل رحلتنا. وتشتهر البحرين بمغاصاتها وآبارها من الماء العذب التي تتدفق في اعماق البحر في نقاط معروفة ويجمع الغواصون الماء العذب منها ويجلبونه الى السطح. وليس عندي معلومات كثيرة عن الوضع الحالي للمغاصات لكن اللآلىء التي رأيتها في البصرة نوعاً وعدداً تدل على أن المغاصات لا تزال غنية. وقال الناس بأن لؤلؤ البحرين أكثر استدارة ولمعاناً من لؤلؤ سيلان لكنه يفقد لونه بسرعة أكبر وينخفض سعره تدريجياً في فترة الثلاثين سنة الأولى من اخراجه. وقد تكون هذه الملاحظة مجرد ظنون لكنها سائدة بين الناس وهم يدعون بأنه لن يتغير بعد هذه الفترة.

ويستغرق السفر من البصرة الى بوشهر عموماً يومين لكن السفر من بوشهر الى البصرة يأخذ وقتاً اطول ولم نصل الى الحاجز المالي حتى ١٥ ديسمبر ١٨١٦م وأمضينا ستة أيام أخرى ونحن نتخذ مساراً متعرجاً في النهر ومررنا بقلعتين طينيتين في ١٩ ديسمبر ١٨١٧م وسابقاً كان يقام سلسلة أمام القلعتين لتعرقل سير السفن. وأحد طراداتنا تجنب هذا العائق المائي ونجح في إجتياز هذا الموقع من يمين السلسلة مما بعث بموجة من الدهشة في قلوب اعدائهم. ووصلنا الى البصرة في ٢١ ديسمبر ١٨١٦م حيث تلقيت فيها ترحيباً حاراً واستضافة شخصية من المقيم الدكتور «كولكوهون» ومقيمنا هذا في البصرة يتمتع بسمعة طيبة عند الكثيرين لكرم ضيافته وحسن استقباله.

ونحن نودع موضوع تجارتنا في الخليج الآن نقول ان حجمها كيفاً وكماً لا يستهان به ويستحق التشجيع لأن الأرباح مضمونة وتأتي بسرعة مما يخدم المصالح التجارية. في هذا الوقت كانت السفن التالية تجوب المياه الخليجية «خسروى» و «صوفيا» و «ماري» و «اليزابيث» وعدد كبير من المراكب الشراعية. وهكذا بلغ عدد السفن التجارية الكبيرة ستاً ومعها ٤ طرادات للشركة وفرقاطه واحدة ومراكب صغيرة أخرى. فإذا تجاهلنا الأطراف الأخرى نجد أن ٨ أو ١٠ سفن كبيرة تقوم برحلتين سنوياً من بومباي و ٣ سفن تقوم برحلة واحدة من البنغال وإذا

أخذنا بعين الإعتبار حمولة كل سفينة في المتوسط بواقع ٣٠٠ طن فتبلغ مجموعة الشحن التجارية حوالي ٧٠٠٠ طن في ظرف عام واحد وهذا دون ان نحسب الأسطول البحري والمراكب الصغيرة التي تقوم برحلات صغيرة من محطة الى محطة. وتتضاعف الحمولة للرحلات المرجعة الى ١٤٠٠٠ طن وهذه كمية ذات أهمية لو كانت مستخدمة لأغراض تجارية فحسب، ويتكون طاقم السفينة من ٥٠ الى ٨٠ عاملا وربان السفينة واثنين من مساعديه ويمكن لنا ان نحسب الخسائر الناجمة عن البلى والتمزق والضياع بواقع ٢٠٠٠ روبية شهرياً لكل سفينة من بومباي ومبلغ اكثر لسفينة من البنغال لأنها تستخدم عدداً أكبر من الأوروبيين.

وقد تكلف كل سفينة حوالي ٦٠,٠٠٠ أو ٧٠,٠٠٠ روبية مع مدافعها ومعداتها وتكلف رحلة واحدة ١٢,٠٠٠ أي ٢٤,٠٠٠ روبية لرحلة مرجعة ويعني هذا استثمار رأسمال قدره ٦٠٠,٠٠٠ روبية أو ٧٠,٠٠٠ جنيه ويساوي عقد رهن لصاحب السفينة مقابل مال يقترضه للقيام برحلة وتصرف السفينة ٤٨٠٠٠ روبية سنوياً من أجل نفقات الملاحة وفوائد الموجودات الثابتة واستبدال السندات المالية الأولية. ولا تقتصر الفوائد على هذه المفردات التي نكسبها باستمرار بسبب الانتقاص في سعر التبادل في العملة.

واننا لن نكشف عن حجم صادراتنا بدقة أو عن عائداتنا أو حجم الضرائب الجمركية على صادراتنا ولا شك ان الأرباح التجارية متناسبة مع حجم الإستثمار وتعمل لصالح بيت المال. وعلى الرغم من صحة ربحية التجارة كما ذكرنا آنفاً حسب المعلومات التي جمعتها الا انها غير معروفة وغير مفهومة عامة وقد يأتي الوقت حيث يزداد وعي الناس في الموضوع بدقة أكثر ويحثهم على المنافسة في مباشرة هذا النشاط للانتفاع به حقاً.

وبخصوص البصرة لا أريد أن أصفها باسهاب لأن كثيراً من الرحالة أوردوا وصفها في كتاباتهم. فبناء هذه المدينة متواضع وهي ليست نظيفة غير أن مناخها لطيف وصحي وتجارتها رابحة ويقال أن عدد سكانها ٨٠,٠٠٠ وهذا عدد متواضع وأقل مما كنت اتصوره قبل ان يصيبها وباء الطاعون. وغالبية سكانها من العرب ولهم التفوق مالاً ونفوذاً ويملك أصحاب الأرض الكبار اقطاعات واسعة ولديهم من ٨٠٠٠ الى ١٠٠٠٠ نسمة من تابعيهم داخل وخارج حدود المدينة ومعظمهم خارج القانون ولا يمتثلون إلا لأوامر زعيمهم فإن موقف المتسلم (التركي) متزعزع سواء كان من ناحية الأمن أو الراحة ويرأس هذا الوالي حوالي ١٠٠٠ جندي من أجناس مختلفة ويفرض عليهم نوعاً من الإنضباط

ويدفع لهم رواتبهم بانتظام ويستخدمهم كالشرطة داخل أسوار المدينة كلما اقتضى الأمر أو عند نشوب الصراع الداخلي بين الزعماء الكبار. ولكن خارج أسوار المدينة لا يوجد أي أمان لأن البدو يملكون الصحراء وهم يحافظون على حريتهم كالمعتاد.

ويقال ان البصرة تأسست في عهد أباطرة روما وكانت مسقط رأس «فيليب العربي» ويقسمها خليج صغير الى قسمين وأسوارها الوضيعة مصنوعة من الطين وفيها أبراج دفاعية دائرية. وتنتشر البساتين والنخيل ما بين الخليج والأسوار. ورغم ان محيط الدائرة يمتد الى ٨ أميال إلا أن المساحة التي توجد فيها المباني لا تزيد على نصف المساحة الإجمالية. وعلى الرغم من إتساع مساحتها وضعف تحصيناتها الدفاعية إلا أنها تصدت للغزو الايراني مرتين ولم تسقط في أيدي كريم خان إلا بعد حصار طويل. واثناء توقفي في البصرة لاقيت من حسن الحظ عدداً من أشخاص طيبين وتمتعت بكرم ضيافة الدكتور «كولكوهون» المقيم الذي كان يملك أصطبلاً فيه حوالي ٥٠ فرساً عربياً أصيلاً.

وقد اعطانا الدكتور فرصة ركوبها في الصحراء وأمضيت بعض الوقت في قراءة الكتب وزيارة الحمامات. وقبل تجوالنا في الصحراء تلقينا النصيحة بعدم الخروج بأنفسنا كيلا نتعرض للإهانة لكننا لم نلتزم بها وأود أن أسجل هنا تقديرنا لأهل البصرة الذين لم يسببوا لنا أدنى مضايقة أو ازعاج داخل حدود الأسوار بل تلقينا منهم سلوكاً محترماً لائقاً برتبنا ودرجاتنا العسكرية. لكن الأمر ليس كذلك في كل مدينة شرقية.

ولقد أبدى أهل البصرة تقديرهم لسيرة الانجليز.

ولما وصلت الى البصرة أخبرنا المقيم عند زيارتي لمنزله بأنني لن أستطيع أن أغادر إلا بعد مدة ليست بقصيرة فوجدت أن السبب يرجع الى الإضطرابات التي نشبت في «باشاليك» بغداد. ولقد علمت بأنه تم تعيين باشا جديد لبغداد لكن الباشا القديم لم يكن راضياً بترك منصبه وكان كل منهما قد حشد انصاره من الجنود وكانت قد مرت ستة شهور على الصراع دون أن يحسم. وقد عرفت أنه لم يقتل احد من الجانبين. وبصفتي رحالة كنت حريصاً على أن أواصل مهمتي في أقرب وقت ممكن وتمنيت لهما نهاية قصيرة لمحنتهما إلا أنني شعرت بأن تفكير الإنسان كثيراً ما يتمشى مع منصبه وقد يوجد أشخاص مثلي يعتبرون بأن الإزعاج الذي تعرضت له هذه المرة بسبب التأخير الذي فرض علي أسهل بكثير من المرتين السابقتين.

ورغم أنه يستحيل إستعادة الوقت الذي فات إلا أن استبدال رأس بآخر

أصعب بكثير. وفي ضـــــوء تسليـح الإثنين من الباشـاوات واحد في داخل العـاصمة والثـاني خـارجها ونظـراً لإنقسام البلاد الواقعة ما بين البصرة وبغـداد الى المعسكـرين المعـاديين المتساويين لم يبق أمـامي أي خيار إلا التـزام الصبر برهـة واغمـر نفسي في جمع المعلـومـات عن البلاد العـربيـة وعاداتهم وتقاليدهم لأقصها ليس على أساس ملاحظاتي فحسب بل في ضوء ملاحظات الآخرين مدعمة باختباراتي الشخصيـة مع العـرب وهم قـوم يتصفـون بصفـات فـوق العـادة كما اكتشفت عندما عشت معهم لمدة شهر في خيامهم في الصحـراء وأثناء سفري من البصرة الى بغداد ومـا تلقيت منهم إلا لطفاً رقيقاً وكرمـاً بالغاً الى أقصى حـد ممكن لأي إنسـان أن يتمنـاه.

شخصيات من بأقلام غربية

هذا البحث

هناك من المؤرخين من يرى أن الاحداث هى التى تصنع الاشخاص البارزين وهناك من يرى أن الاشخاص هم الذين يصنعون الأحداث ويصنعون بذلك التاريخ وسواء صحت وجهة نظر هؤلاء أو أولئك فإن الاشخاص في كلتا الحالتين عنصر هام من عناصر التطور فى أى منطقة وفى أى بلد وفى كل مجال وانطلاقا من ذلك تقدم « الوثيقة » على هذه الصفحات مجموعة من أبرز الشخصيات الخليجية في القرن التاسع عشر في السياسة والدين والآدب وغيرها كما رآهم الغربيون وكما كتبت عنهم الأقلام من خارج المنطقة :

«الوثيقة »

الخليج العربي

في القرن التاسع عشر

الدكتور على ابا حسين

ان الباحث في الوثائق التاريخية يجد كثيرا من تراجم الاشخاص البارزين وقد كتبها معاصرون لهم بأمر من السلطات الاجنبية احيانا لاغراض سياسية واقتصادية او اجتماعية حتى يعرفوا مكانتهم بين قومهم وميولهم وتاريخ حياتهم ونسبهم وعلاقات بعضهم ببعض منهم المشايخ والحكام واعيان البلاد واهل الشأن واكثر تلك الشخصيات من اصول عربية حكم بعضهم موانىء الخليج العربى بساحلية الشرقي والغربي خلال القرن التاسع عشر . وقد كتب الكولونيل ادوارد شارلس روس (المقيم فى الخليج) من بوشهر [1] الى القنصل البريطاني فى مسقط عام ١٨٨٢م ١٢٩٩هـ يقول : نرى بانه مما يفيدنا كثيرا ان تكون لدينا معلومات عن اسماء الرؤساء والرجال البارزين ومكانتهم الاجتماعية ونبذا عن حياتهم خاصة الذين يسكنون فى المقاطعات التى تخضع للسلطة البريطانية فى القرن التاسع عشر في الخليج العربي . وقد ارسل المقيم الكولونيل (روس) استمارات للقنصل البريطاني فى مسقط طالبا منه ملأها بالمعلومات المطلوبة حسب العناوين التى ذكر فيها اسماء الاشخاص فى كل من (مسقط والمناطق التابعة لها) وكان عدد الاستمارات التى

ارسلها ٢٥ استماره [٢] . ومثل ذلك كتب الكولونيل (روس) المقيم في الخليج من بوشهر الى المستر (جابلير) مدير التلغراف والمسئول السياسي عن ساحل مكران طالبا جمع المعلومات عن الشخصيات الهامة من العرب والايرانيين في المناطق الخاضعة لبريطانيا وخاصة رؤساء المناطق فى مكران على أن يتضمن التقرير اسم الشخص واسم ابيه واسم قبيلته والسكن الذي يعيش فيه ونبذة عن حياته وابنائه وزوجاته . ونحو ذلك كما ارفق الكولونيل روس نموذجا للاستمارة التى ينبغى ذكر المعلومات فيها وتحقق المطلوب واستطرد (روس) بقوله : ويمكنكم جمع كافة المعلومات المطلوبة بمساعدة (ميرجهانكير) والكتاب الاخرين فى مكتبكم [٣] كما كتب الى غيره من القناصل والمعتمدين السياسيين في الخليج فاجابه البعض ومنهم :

المعتمد السياسي فى البحرين الذي كتب الى جناب الباليوز قنصل عام الدولة البريطانية فى الخليج قوله : فقد تشرفت بكتابكم المرقم ٨٢/٢٩١ والمؤرخ في ١٦ ذي القعدة ١٢٩٩هـ/ الموافق في ٣٠ سبتمبر ١٨٨٢م مع مرفقاته ١٧ استمارة المرسلة من قبلكم كنموذج لمعرفة اسامى ومرتبات وتاريخ المشايخ والاكابر والاعيان واهل الشأن الكائنين فى هذه المناطق من الخليج وحسب امركم السامى قمت فى الترتيبات وانجاز ذلك وكان المدعو (احمد بن عبدالرسول) هو الذي قام بتحقيق ما طلبه الباليوز قنصل الدولة البهيه القيصرية وارسل له ما طلبه حول معرفة الشيوخ والاعيان فى المنطقة . [٤] وكما يبدو ان (حكيم وبوربوت) هما اللذان جمعا المعلومات وان المشرف على التلغراف (البرقيات) فى جسك او جاسك[٥] قام بارسال المعلومات المطلوبة حسبما ورد في رسالة كتبها فى ١٣ ديسمبر ١٨٨٢م وكان المستر (ماكد ونالد) قد جمع المعلومات وذلك لانه كان ملما باللغة العربية وباللهجة المحلية وبتقاليد الناس وقد بذل جهدا شاقا فى جمع هذه المعلومات على الرغم من انه لا يمكن له ان يؤكد على مدى صحتها كلية لانه لا توجد له مصادر وثائقيه مكتوبه لاثبات هذه المعلومات ورغم ذلك فإن المشرف على دائرة التلغراف فى جسك يشكر المستر مكدونالد ويقدر ما بذله من مجهود فى تحقيق ذلك .[٦] وقد نقل نائب مدير التلغراف فى كراتشى الى المقيم السياسي فى بوشهر شكره وتقديره للمستر (مكدونالد) لما بذله من جهود بهذا الشأن حول جمع المعلومات المطلوبة . كما اشار الى انه لم يتلق اى رد من (غوادر) و (شاه بهار) لحد تاريخه[٧] .

وتلقى نائب مدير التلغراف في (غوادر) رسالة شكر من الكولونيل (روس) كما طلب منه ان يبلغ المستر (ماكدونالد) تحياته وشكره العميق على

جمعه المعلومات باسلوب يستحق التقدير[٨] وارسل (احمد عبدالرسول) الى الباليوز قنصل بريطانيا ٢٨ صفحة او استمارة كتب فيها اسماء ومراتب وتواريخ ونبذ عن حياة المشايخ والحكام والاكابر واعيان البحرين ومن لهم مكانة وشأن فيها كما وعد بارسال تراجم اخرى فيما بعد او انه سوف يقدمها شخصيا حين حضوره فيما بعد ولقائه بسعادة الباليوز وحرر رسالة مرفقة بالاستمارات الـ ٢٨ وارسلها من بندر البحرين في ١٠ مايو ١٨٨٣م الموافق في ٢ رجب ١٣٠٠هـ [٩] .

ومن خلال ما كتب من تراجم لشخصيات خليجية فقد قامت المقيمية السياسية البريطانية في الخليج فى عام ١٨٨٢م وما بعدها بدراسة بعض الشخصيات الخليجية الهامة آنئذ وذكرت طرفا من عادات وتقاليد السكان في اواخر القرن التاسع عشر وكان ميناء (جسك) الواقع على ساحل مكران ذا اهمية جغرافية واقتصادية نظرا لموقعه الوسط لجمع المعلومات والمخابرات عما يدور بين اوساط الجاليات المختلفة خاصة في المناطق الساحلية عبر شطرى الخليج العربي . وقد اتخذ هذا الميناء (جسك) من قبل الانجليز كمركز للمواصلات السلكية واللاسلكية وللبريد الذي يربط بين المحيط الهندى والخليج العربي ، والمعروف ان شركة الهند الشرقية اهتمت (بجسك) منذ عام ١٦١٦م وهي تبحث عن اسواق جديدة لمنتجاتها في ايران وانشأت علاقات تجارية مع البصرة في عام ١٦٣٥م ولكن المصالح البريطانية الاقتصادية تحولت الى مصالح سياسية في القرن التاسع عشر حيث اقامت بين عامي ١٧٦٣ و ١٩٤٧م مقيميات او وكالات سياسية في كل من بوشهر ومسقط والبصره وبغداد والبحرين والكويت والشارقة[١٠] وكانت سياسة بريطانية تدور في هذه الفترة حول تأمين المواصلات البحرية بين بريطانيا ومستعمراتها الشرقية في وجه التحديات من القوى الاستعمارية الاوربية الاخرى والقوى المحلية فى الخليج العربي .

وجدير بالذكر فإن مراكز البرق والبريد والهاتف لعبت دورا هاما في جمع المعلومات والمخابرات بواسطة ممارسة رقابة شديدة على الرسائل المتبادلة بين الاطراف اما بصورة مباشرة او باساليب التجسس خاصة في ايام الحرب والطوارى حيث نالت هذه الاساليب صبغة شرعية تماما . وقد اصبح موضوع دراسة الشخصيات الخليجية التى نحن ذاكروها من اهم ما انتجته تلك الاساليب لمعرفة نقاط الضعف سواء من ناحيه شخصية او قومية او طائفية او مذهبية واستخدام تلك النقاط لمكافحة القوى المعارضة وان ماورد في هذه التراجم يمثل وجهة نظر كاتبها وهو (بوربوث) واليك طرفا من التراجم نوردها كما هى دون تحقيق :

الشيخ عيسى بن علي آل خليفة

هو الشيخ عيسى بن علي بن خليفة بن سلمان بن أحمد (الفاتح) بن محمد بن خليفة آل خليفة من بنى عتبه ويسكن المحرق وزوجته عايشة بنت محمد بن خليفة آل خليفة واولاده هم : (سلمان وحمد وراشد ومحمد وعبدالله) .

ولد في البحرين في ١٢٦٥هـ / ١٨٤٩م وفي حياة ابيه كان حاكما في المحرق ثم بعد وفاة والده في ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م خرج من البحرين واتجه الى قطر وتلقوه طايفة النعيم واكرموه واقام عندهم نحو مدة شهرين الى أن اتاه الداعي من اهالى البحرين ومن لدن نايب الدولة البهية القيصرية فوصل البحرين ومعه النعيم (آل جبر) ومن تبعهم الى يومنا هذا ملازما الى صحبتهم واعطائهم واكرامهم . وبامضاء الدولة البهية ورضى الاهالي تولى حكومة البحرين . ومن خصاله الحميدة الكرم المنعوت في حكام العرب السالفة فى العطاء لاهل التوقع والضعفاء وما شابه من العربان والذين يفدون عليه من البر وفي طبعه الحلم والسماحة وعدم الاستعجال فى الامور وتدارك الامور بالهون واصلاح ما بين الطرفين بعكس افعال غيره من بعض الحكام في البطش والنهب وهتك الرعايا وفرارهم من ذلك من اوطانهم الى ممالك أخرى ولم يزل يدارى خاطر كبراء قومه بالعطاء وما شابه . وقد بانت بسالته وشجاعته حين خان القوم بابيه وقتل في الرفاع من اعمال البحرين وفي بدنه من الصوابات (الجراحات) من الرمح والسيف ما هو بين وواضح وكذا فهو مشهور في إحسانه لجماعته واقربائه يوقر كبيرهم ويرحم صغيرهم . وقانون هذه الاسرة (آل خليفة وهم من العتوب : انهم ما يزوجون بناتهم احداً الا منهم . وفيهم . والاغلب في حكومته من يرجع امره إلى الشرع ومنهم من يرجع امره الى سالفة الغوص . وسيرته فى جزيرته البحرين كسيرة العرب وسياسته كسياستهم كما تقدم . ولا يعرف من اللغات سوى لغته العربية السالكه الآن فيما بينهم[١١] .

الشيخ زايد بن خليفة

ساكن ابوظبى

ولد في ١٢٥١هـ ١٨٣٥م اصبح شيخا في ١٢٧١هـ ١٨٥٤م ويتمتع باحترام الناس ليس في ابوظبى فحسب بل في كافة السواحل العربية والمناطق القبلية الداخلية (حتى لقبه الجميع بزايد الكبير) وانه يراعى مصالح القبائل من غير بنى ياس ايضا وهو موضع ثقتها ويملك عددا من

الخيول والجمال . وهو متعاطف مع رعاياه ويكلمهم بلطف وكرم ويعاملهم معاملة حسنه لكنه شديد مع من يخالفه مثلما حصل قبل ٨ سنوات مع بنى مرة حيث اضطر لنفى زعيمها وأفرادها وقوامهم ٥٠٠ نسمة . وتسود علاقات ودية بينه وبين شيخ دبي وكان يعفى بعض رجال القبائل من دفع الضرائب وفيما يلى اسماء القبائل التى تسكن ابوظبى :

بومهير ، والمزاريع ، والهوامل ، والمحاربه ، وبوفلاسه ، والقبيسات[١٢] .

احمد خان بن مصطفى خان

هو احمد خان بن مصطفى خان حاكم (بستك) وتوابعها . ولد في عام ١٢٥٩هـ/١٨٤٣م[١٣] وهو من موظفى الحكومة وسيرته حسنه ورعاياه يحمدون سيرته ويحبونه وهو شخص منصف محب لرعاياه . ويبلغ عدد سكان بستك من ذكور واناث نحو سبعة الاف وثمانمائة وخمسين نفرا منهم ثلاثة الاف واربعمائة وخمسين رجل ومنهم اهل السلاح الف ومائتين نفر . ويتبع بستك خمسين قرية وفيها من الرجال اهل السلاح نحو خمسة الاف نفر . ومكاسب اهل بستك وتوابعها زراعة الحب والشعير والنخيل وبعضهم يقوم بصناعة الشُرُع (جمع شراع للسفن) وبعضهم حماره وجماله وقليل منهم من التجار الذين يتعاملون مع اطراف ايران مثل (لنجه وبندر عباس) والهند واليمن ومحصول ديوان بستك وتوابعها ثمر النخيل وروسية (ضريبة على الرؤوس) ونصف زكاة الزرع ونصف زكاة ثمر النخيل وضريبة على القوافل المترددة من (لنجه) الى (لار) ويدفع ديوان بستك الى (قوام الملك) بتوسط فتحعلى خان حاكم (لار) فى السنة ستة عشر الف قران من المال وبيشيكش . ومذهب اهل بستك سنة شوافع ومتمسكين بمذهبهم . ولا حمد خان بن مصطفى خان اخوان هم : محمد رفيع خان . ومحمد تقى خان . ومحمد عزيز خان . ومحمد رسول خان ، وعيال عمه واخوان زوجته محمد حسن خان واحمد خان . واهل مشورته اخوند شيخ عبدالرحمن وشيخ اسحق وفي هذه الايام اخوه محمد تقى خان اتفق مع بعض الناس واراد الاغتشاش ولكن قبض عليه احمد خان وحبسه كما اصبح أحمد خان حاكما على لارستان وبستك وعمر مدينة جهانكيريه . ولا حمد خان زوجة واحدة . واولاده هم : محمد خان ومحمد ولي خان ومصطفى خان وبنت واحدة . ويسكن احمد خان في بستك . وعدد افراد طائفته نحو مائتين نفر .[١٤] .

سيد محمد سعيد بن (سيد طالب (نقيب البصرة)

والنقيب معناه السيد اى من نسب

الرسول (ص) وكان الاسياد سابقا تابعين للقانون المدنى تحت اشراف زعميهم (النقيب) وعلى الرغم من ان هذه الامتيازات قد الغيت اخيرا الا ان النقيب لا يزال يمارس بعض النفوذ فى الشئون المحلية .

والسيد محمد سعيد البالغ من العمر ستون عاماً يتمتع بشخصية محترمه وتبدو عليه مظاهر الترف وهو نشيط ورياضى وعضو في مجلس ادارة البصرة ورجل مهم جدا خاصة بعد سقوط قاسم باشا الزهير . وقد استقرت اسرته منذ قرون عديدة فى البصرة ويدعى السيد محمد سعيد بانه من اسرة احمد الرفاعى . وتبنى منصب النقيب قبل ٨ سنوات عقب وفاة اخيه السيد عبدالرحمن الذي سبق له ان حصل على هدية من حكومة الهند مكونة من ساعة واسوار اعترافا بمجهوده فى مطاردة القراصنة . وظلت البصرة والزبير منذ عدة سنوات منقسمتين بسبب المنافسة بين النقيب وعائلة الزهير ونجح السيد عبدالرحمن فى نفى سليمان الزهير من الزبير لكن قاسم الزهير (وليس قاسم باشا) اكتسب نفوذا كبيرا في البصرة وحتى بضع سنوات قبل وفاته كان قد فقد النقيب الراحل نفوذه فى الشئون المحلية . ولما تولى ناصر باشا السعدون منصب الحاكم العام للبصره بذر النقيب الحالي بذور الخلاف بينه وبين قاسم باشا مما ادى الى ضرر للاثنين لكن النقيب استفاد من التطورات[١٥] .

الشيخ خالد بن علي آل خليفة

وهو الشيخ خالد بن علي بن خليفة بن سلمان بن أحمد بن محمد بن خليفة آل خليفة من بنى عتبه ولد في البحرين في عام ١٢٦٩هـ الموافق ١٨٥٣م وله مكانه عند شيخ البحرين ويسكن الرفاع وله املاك ونخيل في البحرين . وعنده بتيل (سفينه) يسافر الى الهند واليمن والبصرة وغيرها وعنده بعض الفداوية وله مقام وحشمه عند اخيه الشيخ عيسى حاكم البحرين الذي تجري احكامه كحكم حكام العرب . ومن اللغة لا يعرف الا اللغة العربية ومن ابنائه (ابراهيم وعلي) و (سلمان وعبدالله) وزوجته بنت حمود آل خليفة وزوجة اخرى من الجلاهمة[١٦] .

الشيخ عبدالرحمن بن الشيخ عبداللطيف آل مبارك

وينتسب الى بنى تميم ولد في الاحساء عام ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م وكان ابوه وجده قضاة فى الاحساء ومن افاضل سكانها ثم هو واخوانه المشهورين فيها والمعروفين بآل مبارك من اهالى الاحساء . فلما وصل اليها الامام عبدالرحمن بن فيصل عام

١٨٧٥م . سلموا اليه باديتها وحاضرتها ماخلا الكوت الذي تحصن فيه (بزيع باشا) مع عسكر الروميه (العثمانيين) وحدثت حوادث ادت الى خروج (عبدالرحمن بن الشيخ عبداللطيف آل مبارك) واخوانه من الاحساء ووصلوا الى البحرين وبعدها نصبوه حكام البحرين قاضي فى المحرق بالبحرين يقضي على الطريقة المالكية وهو مذهب من المذاهب الاربعة واعطوه الحكام بعض النخيل وقوفات لاستقامة حاله وهو لا يعرف سوى اللغة العربية . وتزوج الشيخ عبدالرحمن آل مبارك من ثلاث زوجات هن : بنت عبدالرحمن بن عفالج وبنت احمد ابو اعلجي وبنت جبر الدوسرى . اما اولاده فهم احمد وعلى وعبداللطيف ومبارك[١٧] .

قاسم باشا بن محمد جلبى الزهير

وهو كبير عائلة الزهير الذين ينحدرون من نجد ومن بنى صخر من طي ويسكنون (الزبير) التى تقع فى موقع البصره القديمة (وسكان الزبير) من اهل نجد نزحوا اليها في فترات من التاريخ الحديث ثم عاد اكثرهم الى بلادهم التى نزحوا منها ـ وفي عام ١٨٧١م لما عزل سليمان (الزهير) من منصبه حل محله قائمقام عثمانى وكان الابن الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من اسرة محمد جلبى هو (قاسم باشا) وكان محمد جلبى رئيساً للمحكمة التجارية فى البصرة ثم تولى قاسم باشا نفس المنصب وعين رئيسا في مجلس الادارة . وكان مدخوله السنوى ١٠,٠٠٠ جنيه ومن ١٨٧١م الى ١٨٧٦م كان قاسم الزهير اكبر الرجال رسوخا ونفوذا فى البصره . وعندما تعرضت الباخرة البريطانية (كاشمير) لغزاة فى الخليج وذلك فى يوليو عام ١٨٧٣م بذل كل من قاسم باشا وناصر باشا السعدون مجهوديهما للقبض على الجناة ونجحا فى محاولتهما وبل قام ناصر باشا بمطاردة الغزاة حتى قبض عليهم . وقدمت له حكومة الهند ساعة وسوارا هدية له لانه رفض ان يقبل من الانجليز تغطية مصاريف المطاردة . وفي عام ١٨٧٦م اصبح ناصر باشا السعدون رئيس المنتفق . حاكما عاما على البصره وبصفته زعيم عربي وكونه حاكم عام كان يتفوق على قاسم باشا نفوذا ومكانة الا ان قاسم باشا كان يتفوق عليه شجاعة وكفاءة . وتعاون الاثنان فى ادارة البصرة لمدة . وبرز الخلاف مما افسد العلاقات بينهما فاتجة قاسم الى بغداد واقنع الوالى هناك على طرد ناصر باشا من منصبه واستدعائه الى اسطبنول وبدأ صراع قانونى طويل بينهما طلب بموجبه كل منهما تعويضا من الثانى وصرفا من ضمنه مبالغ ضخمة من أجل الرشوة . وبعد خروج ناصر باشا

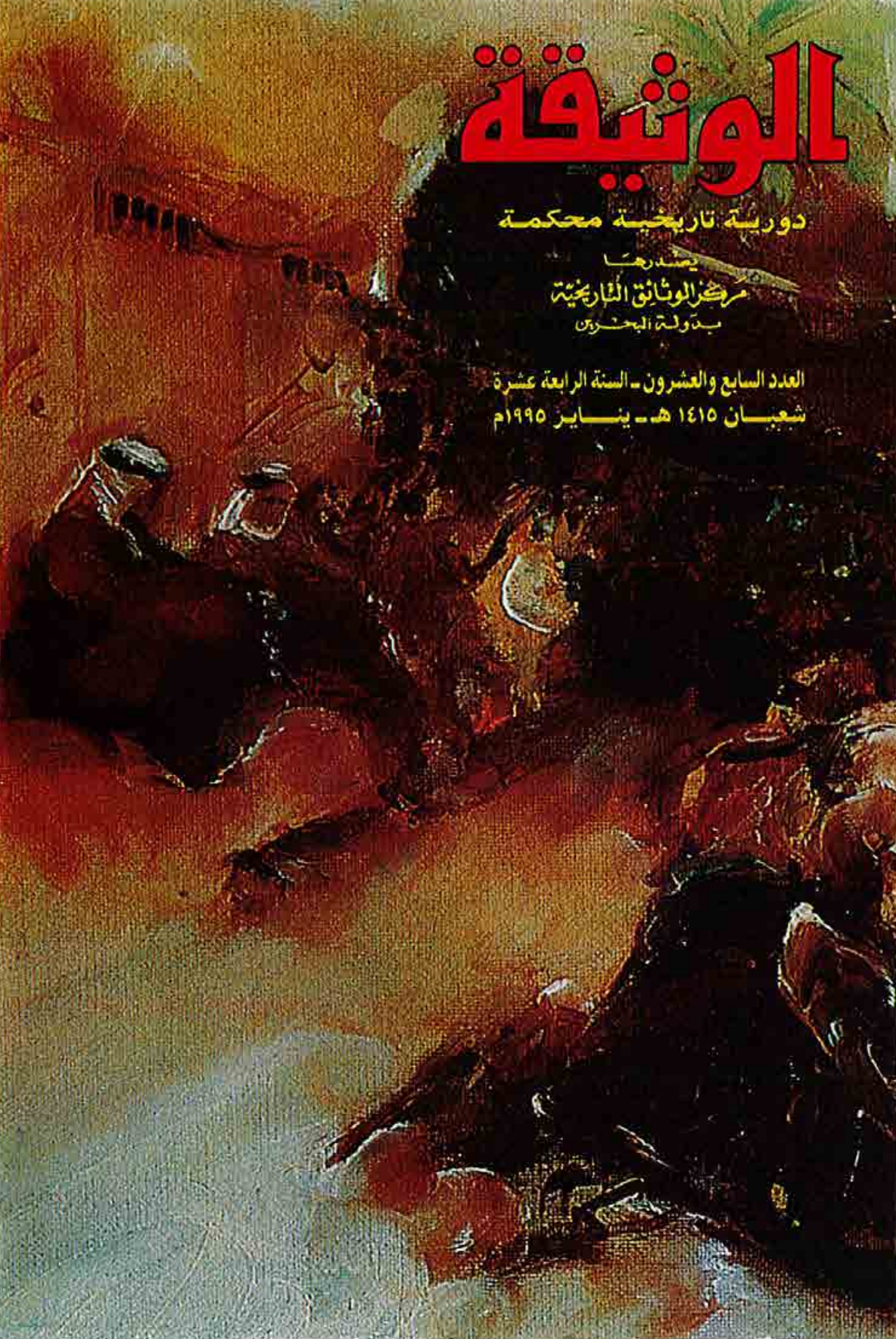

الوثيقة

دورية تاريخية محكمة

يصدرها

مركز الوثائق التاريخية

بدولة البحرين

العدد السابع والعشرون - السنة الرابعة عشرة

شعبان ١٤١٥ هـ - يناير ١٩٩٥م

الشاعر

دراسة موضوعية

٤

بقلم : الدكتور

أحمد موسى الخطيب

علي بن المقرب العيوني

دراسة وفنية

هذا البحث

في الحلقة السابقة من هذا البحث عرض المؤلف لكل ما يتعلق بالديوان مخطوطا ومطبوعا وتتبع النسخ الموجودة في كل من النوعين بالدراسة الدقيقة والوافية. ثم انتقل الى أغراض الشعر عند ابن المقرب العيوني فبدأ بالفخر وانتقل الى الشكوى ثم النصح والعتاب ليختم الحلقة السابقة بالنسيب. ويقدم الباحث في هذه الحلقة بقية أغراض الشعر عند ابن المقرب بادئا بالمدح.

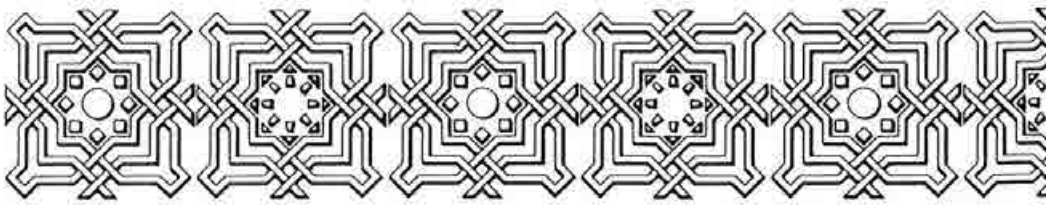

(٥)
المـــدح

طغى شعر المديح على سائر أغراضه من حيث الكم ، وانما أخرناه هنا لأننا لم نر له مساسا بنفسه وذاته كما تقدم من الأغراض . ويبلغ المديح الخالص اذا ما نخلناه من المقدمات الغزلية وسائر الأغراض الأخرى كالفخر والشكوى والعتاب والحكمة . الخ نصف شعره فى الديوان تقريبا ، وقد بلغت القصائد التى مدح بها أمراء أسرته خمسا وثلاثين قصيدة من أربع وستين قصيدة هى مجموع مدائحه ، التى بلغت أبياتها ألفين ومائتين وتسعة وثلاثين بيتا . أما سائر مدائحه وهى عراقياته فقد دبجها في مدح الخليفة العباسى الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢هـ) والخليفة المستنصر بالله (٦٢٣ - ٦٤٠هـ) وولاتهما فى الحواضر العراقية ، وبعض أهل الفضل والعلم هناك .

وازاء هذا العدد الكبير من الممدوحين المتفاوتين مكانة وخطرا ، وأمام هذا الكم الهائل من شعر المدح ، نجد من العسير علينا أن نستعرض كافة ديوان المديح عنده ، ويصبح الوقوف عند شخصيات بعينها لها دلالتها على حياة الشاعر وأثرها فى شعره ، وعند نماذج بعينها تمثل تطور شعر المدح عنده الى مرحلة نضجة ، هو المنهج الأدنى الى القصد .

فأول الشخصيات التى مدحها ابن المقرب فى موطنه « الاحساء » وقبل رحيله الى العراق ، ودبج فيه باكورة غرسه ، الأمير محمد بن أبى الحسين العيونى ، وقد خصه بخمس قصائد .

وكانت شخصية هذا الأمير - كما أشرنا من قبل - تستحق التقدير والاعجاب للدور الذي نهض به في المحافظة على قوة دولتهم ، وصلابتها في وجه خصومها من داخل الدولة وخارجها ، وكان أخر حكامها الأقوياء ، ذوى المهابة والسطوة . فوجد فيه ابن المقرب الشخصية العيونية والعربية المثالية ، ولا حرج اذا قلنا أنه قد وجد ذاته في هذه الشخصية . ولم لا ؟ ولا سيما اذا علمنا أنه كان يترسم خطوات شاعرنا العظيم أبى الطيب المتنبى ، فقد ارتاحت نفس الأخير عند « سيف الدولة » وقرت بلابله ، اذ وجد ذاته فى تلك الشخصية العربية الفذة ، وسره أن يصبح « شاعر الأمير » و « ليس بالقليل ذا اللقلب » فنظم فيه أروع مدائحه . وهذا ابن المقرب يخلص لأميره صاحب الهيبة والسطوة ، فيصف حملاته ، ويسجل الدور الكبير ، الذي نهض به . وقد كان أميره عربيا عيونيا فضليا ، وابن المقرب مفتون بقومه . متعصب لأسرته ، ميال لآل الفضل محب لهم .

والقصائد التى نظمها فى الأمير المذكور ، تمثل باكورة ابداعه الفنى ، فأول قصائده التى مدحه فيها بائيته

التى مطلعها :

منال العلا بالمرهفات القواضب
وسمر العوالى والعتاق الشوازب[1]

فهى أصل شعره ، وأقدم قصيدة يحتفظ بها ديوانه ، نظمها عام ٥٩٩هـ .[2] وقد بدأها بعدد من الحكم ، ثم خلص منها الى المدح ، فوصفه بالشجاعة في شن الغارة ، والدفاع عن الحمى :

يشن بها الغارات أروع ماجد
سريع الى الجلى بعيد المطالب
شجاع اذا ما أصبح الحى لم يكن
صبوحهم الا رواق المضارب
ازاح الاعادى عن حماها وحازه
فاضحت له آسادها كالثعالب[3]

ثم وصف وقعتيه مع بنى مالك ، وأهل الشام ، وكيف مزق صفوفهم ، ودفع خطرهم ، وختم مدحته بالدعاء للممدوح :

فلا عدمت يوما ربيعة مثله
لتشييد عز أو لبذل مواهب
ولا برحت ايامه فى سعادة
ولازال محروس الحمى والجوانب[4]

وجاءه عام ٦٠١هـ مادحا بلاميته التى مطلعها :

صداق المعالى مشرق وذابل
وسابغة زعف واجرد صاهل[5]

فقد بدأها بعدد من الحكم ، ولعله متأثر بأبى الطيب في افتتاح بعض سيفياته بأبيات من الحكمة تدور حول موضوع المدح ،[6] وخلص منها الى المدح ، فوصفه بأنه صبوح الوجه ، كريم الأصل ، شجاع ، وكال له عدداً من التشبيهات في الحاح مبالغ فيه ، بأسلوب يعتمد على التتابع والتكرار والتدفق فيقول :

هو البحر لكن مده غير جازر
هو البدر الا انه الدهر كامل
هو الشمس فى جو السماء ونورها
على كل من فوق البسيطة شامل
هو المزن الا انه فوق سابح
وفي كل ارض منه سح ووابل
هو الليث إلا أن عرينه القنا
وصيداته الصيد الملوك العباهل
هو النصل لكن لا يحس غراره
بنان وبالايدى تحس المناصل[7]

وهى ـ كما نلاحظ ـ صور حسية مطروقة ، وقد انتقل بعدها الى وصف وقعة له مع بنى مالك ، وأخرى مع بنى طىء وزيد .

ثم امتدحه عام ٦٠٢هـ بنونيته التى مطلعها :

الا رحلت نعم واقفر نعمان
فبح باسمها ان عز صبر وسلوان[8]

وخلع عليه فيها كثيرا من صفات الكرم ، والعفو ، وحسن الرأى ، واصلاح ذات البين فقال :

واغنى ذوى الحاجات منكم بماله
فاضحى لكل من عطاياه ديوان
وكم راجل امسى بنعماه فارسا
وكانت صفايا ماله المعز والضان
وكم من حريب راح نهبا سوامه
فراح عليه للكآبة عنوان

فما أتاه شاكيا من زمانه
غدا من عطايا كفه وهو جذلان
وكم مذنب قد خاف منه عقوبة
تلقاه منه حسن صفح وغفران
وكم من قبيل راح يزحف بعضه
لبعض وقد شبت بواديه نيران
تلافاه منه حسن راى وسطوة
فراح وقد ماتت حقود واضغان

وكانت رابع مدائحه له ، رائيته التى مدحه بها عام ٦٠٢هـ ، واستهلها بقوله :

رماح الاعادى عن حماك قصار
وفى حدها عما تروم عثار
وكل امرىء ليست له منك ذمة
يضام على رغم له ويضار[٩]

وبعد هذا الدعاء للممدوح ، ينتقل الى الحديث عن تحالف عامر عليه ، فحذرهم من عاقبة تآمرهم عليه ، وخلص من تبكيته لهم الى المدح ، فخلع على أميره صفات الشجاعة ، والحلم ، والحدب على الرعية ، والكرم ، والعفو ، فقال :

فمن مثله يرمى عداكم ويتقى
اذاكم ويحمى دونكم ويغار
ويرعيكم المرعى ولو أن دونه
عثير دماء بالسيوف تمار[١٠]
ويعطيكم الجرد الجياد تحفها الـ
موالى وكوم لا تذم عشار
ويعفو عن الجانى ولو شاء هلكه
لما عصمته من قناه ظفار

أما أخر مدائحه له ، فنونيته التى مطلعها :

سائل ديار الحى من ماوان
ما أحدثت فيها يد الحدثان[١١]

ومدحه فيها بعفة اللسان ، والتواضع وعلو الهمة ، ومضاء العزيمة ، والطهر .. ومنها قوله :

لم ينطق العوراء قط ولادرى
ما الكبرياء على عظيم الشان

ومنها قوله :

ذوهمة من دونها القمران
وعزيمة امضى من الحدثان
لو ان للعضب المهند عزمه
لفرى الجماجم وهو فى الاجفان
ولو ان للشمس المسيرة بشره
تاهت فلم تطلع مدى الأزمان
عف الازار كريمة اخلاقه
ناء عن الفحشاء والشنان[١٢]

وجدير بالذكر ان أسلوب الشاعر فى البيتين الثانى والثالث يتكرر بنفس المعنى والالفاظ ، والصور فى مدائح اخرى ، لممدوحين مختلفين ، فكأن هذه الأساليب مجرد قوالب جاهزة قد استقرت فى نفس الشاعر ، يفرغها لمن شاء ، ومتى شاء .[١٣]

وقد انتقل بعد ذلك الى وصف احدى جولاته مع آل حجاف وآل شبانة من أهل القطيف ، ثم عاد ثانية ليخلع عليه مزيدا من صفات الكرم ، والشجاعة ، وسمو الشرف ، والفصاحة .

كما خص الأمير «الفضل» بن محمد بن أبى الحسين بأربع قصائد ، وكانت صلته به استمرارا لصلته الطيبة بوالده ، ووفاء منه لتلك

الوشائج المتينة بينهما . فقد سفر له لدى بلاط الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ ـ ٦٢٢هـ) ، ليستعين به على حرب القطيف ، عندما أطلت الفتنة برأسها بعد مقتل أبيه .

وفي عهد هذا الأمير نكب ابن المقرب ، وسجن ، ثم ارتحل الى العراق ، ومع هذا بقى على حبه له ، وتقديره لآل الفضل .

فقد جاءه بعد مقتل أبيه ، راثيا مادحا بلاميته ومطلعها :

ظننت حسودى حين غالت غوائله
يريع الى البقيا وتطوى حبائله[١٤]

ويمضى الشاعر في قصيدته متنقلا بين أغراض عدة ، ولم يشر الى ممدوحه الا فى البيت الثامن والأربعين بقوله :

ايا فضل لازالت لنعماك تلتقى
بمغناك سادات الملا وعباهله

وبدل أن يشغل بمدحه ، أخذ يعاتبه ، ومضى في عتابه له حتى نهاية القصيدة عندما توقف ليسأله الرفد ، أو قل حقه في أن يرفد ، فالممدوح والشاعر منصبهما في الفخر سواء ، وكذا ربعهما، فيقول في ختام قصيدته :

ومنصبك السامى الى الفخر منصبى
وربعك ربعى والعلى انت اهله
فجد بالذي تحوى يداك على الورى
وضن عليهم بالذي انا قائله
فما المسك الا من عقابيل نشره
ولا الجوهر المكنون الا خصائله
ورأيك اعلى والرضا ما رضيته
وكل امرىء غول المنيه غائله

ونلاحظ ان الشاعر يهدد ممدوحه فى البيت الثانى بأسلوب غير مباشر ، فهو اذا لم يحظ بنيله ، فانه سيتحول ـ مضطرا ـ بعقود نظمه الى غيره من الممدوحين . وقد خلت القصيدة ـ كما لا حظنا ـ من المدح ، فلم يخلع الشاعر على أميره شيئا من الأوصاف التى اعتاد أن يكيلها لوالده . ولعل انشغاله بالفقيد في الشطر الاكبر من القصيدة كان وراء هذا الاهمال لممدوحه .

وقد أتبع هذه القصيدة بنونيته ، ومطلعها :

ما انصف الطلل العافى بما وانا
لم نشجه يوم سلمنا واشجانا[١٥]

وبعد واحد وستين بيتا يخلص الى ممدوحه ، فيصفه بالحزم والعزم ، والبأس الصادق والندى الغامر ، والحلم ، والعقل ، والهيبة ... ومنها قوله :

حزم وعزم وباس صادق وندى
غمر وحلم وعقل فاق لقمانا

ومنها قوله :

انت الذي ترك الاعداء هيبته
كل يجمجم ما يلقاه حيرانا
يأبى لك المجد والطبع الكريم بان
تدعى على المال للاحداث خزانا
يا من يرى بذله الاموال فائدة
تبقى له ويرى الامساك خسرانا[١٦]

اما رائيته التى استهلها بقوله :

الناصر لدين الله فميميته التى مطلعها :

الام أناجى قلب حيران واجم
وانظر عودى بين لاح وعاجم[٢٧]

فبعد مقدمة لم تجاوز ثلاثة أبيات ، خلص منها الى المدح ، وقد أفاض فيها بمدح أبائه من بنى هاشم ، وفضلهم ، وتقدمهم ، وأحقيتهم في الخلافة :

فقل لدعاة الشرق والغرب أقصروا
وكفوا والا تقرعوا سن نادم
فما الحق الا دعوة هاشمية
هى الحق لادعوى غوى وغاشم
بها اصبح الاسلام فى كل موطن
ينوء بركن منه عقد الدعائم
اقام له في كل ثغر كتائبا
ترى الشرك من شداتها فى ماتم
تبيت طواغيت النفاق لهمه
كان حشاياها ظهور الشياهم[٢٨]

ثم يصف الرحلة الى الخليفة ، ويبدو أنها رحلة بحرية برية لقوله :

فكم متن ساج تحت ساج قطعته
على ظهر ساج غير واه العزائم
وكم جبت من خرقا تموت بها الظبا
بهمة مضاء على الهول حازم[٢٩]

ولا يخفى ما في البيت الاول من صنعة متعمدة ، فى الجناس التام الناتج عن تكرار كلمة (ساج) مرة بمعنى البحر ، وأخرى بمعنى الليل ، وثالثة بمعنى السفينة .

وبعد عرض مفصل ، وصادق لمنبته ، يتجه الى الخليفة طالبا نواله صراحة هذه المرة :

وبشرت أهلى بالغنى حيث مرجعى
اليهم على انف من الدهر راغم
فجئت وقد نالوا السماء وايقنوا
بأن الغنى اضحى كضربة لازم
ولم امتدح خلقا سواك لما له
فأحظى بنيل أو ببعض الأباهم
وانى لأرجو من ايديك نفحة
على الدهر يبقى ذكرها فى المواسم
افيد بها مجدا واكبت حاسدا
واعلو بها هام الملوك الغوانم[٣٠]

والملاحظ على مدائحه فى الخليفة الناصر ـ خاصة ـ ميله الى الاغراب والصنعة ، وكأنه قد أراد أن يستعرض امكاناتُه الفنية ، وابداء مقدرته اللغوية ، في موقف لا يخلو من منافسين ، والى جانب هذا الاغراب ، وتلك الصنعة ، نلاحظ فيها ثقافة واسعة في علم الانساب ، وحوادث التاريخ ومأثور القول .

اما الشخصية العراقية التى أقام شاعرنا فى بلاطها ، وحظيت بأكبر قدر من مدائحه فهو شمس الدين باتكين أمير البصرة . فقد خصه بثمانى قصائد . ويبدو أن ابن المقرب بعد فقده للأمير محمد بن أبى الحسين العيونى ، كان بحاجة الى شخصية بديلة ، يجد فيها ما ينشده ، من مثل عليا ، وكأنما قد وجد ضالته فى الامير باتكين ، لما عرف عنه من عزم ، وحزم ، وعلم ، وتقدير للعلماء ، وصلابة فى وجه أعدائه ، وحرص على النهوض بالبصرة ، فكان ألمع ولاة

العراق ، وأكثرهم تقديرا لدى الخليفة الناصر . وقد كان الاعجاب متبادلا بين الشاعر والأمير ، فقد أكرمه باتكين وقدمه ، وحنا عليه ، وألقى عليه ظلا من رعايته ، مكبرا فيه كرم الأرومة والشاعرية ، فانقطع له مادحا ، ومسجلا لمآثره ، وكأنه اراد ان يجدد لنا ذكرى تلك الصلة الحميمة بين المتنبى وسيف الدولة ، فمدح شمس الدين قريبا منه، وبعيدا عنه.

ومن الواضح ان ابن المقرب كان بدون منافس عنده ، فشعره لا يحمل الينا ، ولا يومىء لنا بمثل ذلك ، بل لا نظن شاعرا فى الحواضر العراقية - آنذاك - كان يفضل شاعرنا ، فهذه الفترة لم تحمل الينا أسماء شعراء نابهين ، ولعل هذا ما يفسر لنا هدوء نفسه ، بالاضافة الى رتابة شعره وعدم تلوينه .

ومما يميز مدائحه لشمس الدين « أنها من المدائح التى لا تصلح الا لمن قيلت فيه ، فالشاعر لا يكتفى فيها - كما يكتفى الكثيرون من شعراء المديح وكما فعل هو في مدائح أخرى - باسباغ نعوت الحمد على ممدوحيهم ، مما هو عام شائع يصح قوله في كل ممدوح ، ومما لا يميز ممدوحا عن غيره ، بل نراه يلحظ بعين الاهتمام والتقدير ، ويسجل بقلم المؤرخ الصادق ما تتصف به حكومة الممدوح أو سيرته من قيام بالعدل ، وحنو على الرعية ، وماله من أياد فى ميدان العمران « وحسبنا لاميته التى أولها » .

ماشئتما يا صاحبى فقولا
هيهات لن تجدا لدى قبولا[٣١]

وهى أول ما نظمه فيه ، فالشاعر يذكر من سمات الممدوح وصفاته ، ومن أعماله وأفضاله ما هو حقيقى تاريخى ، ولعل ولع الشاعر بالتاريخ - وهو ما تكشف عنه اشعاره - قد وجه اهتمامه الى ذكر هذه الحقائق والاعمال التى غفلت عنها كتب المؤرخين . فهذه القصيدة تطوف بنا أرجاء البصرة ، وتطلعنا على مناحى النهضة الحديثة ، التى تحققت على يدى واليها الصالح المصلح ، فقد أحاطها بسورمحكم ، وابتنى فيها المدارس والمشاهد والربط ، وأنشأ سوقا تنافس سوق بغداد ، ورمم مسجدها ، وأدخل عليه تعديلا :

كانت سواداً قبله فاعادها
مصرا تروقك ممسئا ومقيلا
بالمبرم الاسواق والسور الذي
منع الاعادى ان تميل مميلا
والربط بين مدارس ومشاهد
شرفت وفضل اهلها تفضيلا
احيى بها للشافعى ومالك
وابى حنيفة احرفا وفصولا
وبجامع ند الجوامع كلها
حسنا وعرضا فى البناء وطولا[٣٢]

وقد سلك نفس المنهج فى داليتيه ، الاولى ومطلعها :

طما بحر الهموم به فمادا
وعوضه عن الغمض السهادا[٣٣]